

توفيق الحكيم

طعام الفم والروح والعقل



طعام الفم والرّوح والعقل

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ السيد محمد بدوى
الاسكندرية

كتـــابـــك ١

توفيق الحكيم

طعام الفم والرّوح والعقل



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كتابك . . أجل كتابك وكتاب كل قارئ عربى وكل أسرة عربية ، تجد فيه معارفُ الإنسانية جميعاً مبسوطة أمامك ، ميّسرة لك ، بأقلام صفوة المفكرين ورواد العلم والأدب والفن . يطالعونك بما يخرجك من الحيرة تحس بها حيال آلاف الآلاف من الكتب التى تصدرها المطابع كل يوم فلا تدرى ما تأخذ وما تدع ؟

وهذه السلسلة التى تضع بين يديك كل أسبوع علوم الآباء والأجداد وآدابهم وفنونهم ، وتصل ماضيك بحاضرك ، وتستشرف معك آفاق المستقبل المأمول بإذن الله — يفيد منها القارئ العادى ، والقارئ المتخصص ؛ ذلك أن المتخصص لا يستطيع اليوم — مع اتساع ميادين المعرفة — أن يلم بكل شيء .

وقد أحسست دار المعارف حاجة القارئ العربى الشديدة إلى الثقافة العامة التى لا غنى عنها لكل إنسان يعيش فى القرن العشرين ، فاستقر

رأيها على أن تمده بهذا الرغيف الثقافى الذى لا يقل وزناً ولا خطراً عن رغيف العيش ، بل هو أسمى منه وأرفع وأقدر على تنمية الذوق ، وإمتاع الفكر وصقل الوجدان ، وتنمية العقل ، وإفساح الرؤية ، وهذا هو ما لمسه كاتبنا الكبير «توفيق الحكيم» فى كتابه الرائع «طعام الفم والروح والعقل» الذى نفتتح به هذه السلسلة مؤمنين بأنها ستكون بمشيئة الله زاد التلميذ فى مدرسته ، والطالب فى معهده ، والصانع فى مصنعه ، والأديب فى خلوته ، والمفكر فى صومعته ، ورجل الأعمال فى راحته ، والمرأة فى بيتها .

ونحن نستلهم فى هذا المقام الآية الكريمة التى كانت أول ما نزل على الرسول عليه السلام من الوحى : «اقرأ باسم ربك . .» ؛ فهى تحض على العلم والمعرفة .

وقد جاء فى الحديث الشريف : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» و «لو كان العلم بالثريا لتناولته» و «وما أعلم عملاً أفضل من طلب العلم»

وفقنا الله إلى ما فيه الخير ، ، ،

المستشار الثقافى للدار

إبراهيم زكى خورشيد

مقدمة

إن طعام الفم هو الخطوة الأولى فى التدرج الحيوىّ للإنسان . فهو يبدأ منذ ولادته بأخذ غذائه من ثدى أمه . وليس الطفل وحده هو الذى يجرى عليه هذا القانون الحيوى ، إنما هى سنّة كلّ مخلوق حىّ . فتعريف الكائن الحىّ من إنسان وحيوان ونبات هو كل ما يتغذى وينمو . ولكن الإنسان يتميز بتنويع الطعام . فالطفل إذا شبّ إلى مرحلة الصبا والشباب احتاج إلى طعام آخر غير طعام الفم ، هو طعام الروح ، ليغذّى وجدانه ، فإذا دخل الشابّ فى مرحلة الرجولة والكهولة شعر بحاجته إلى طعام العقل ليغذّى فكره . . وكل هذه الأطعمة المختلفة التى تحتاج إليها هذه الأجهزة الثلاثة المكّونة لذلك المخلوق المسمى بالإنسان هى ما يدور حوله بحث الباحثين منذ مبدأ الأجيال ، ولكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث تاريخها الخاص فى تطور الأفراد والمجتمعات ؛ فتاريخ المجتمعات البدائية يدلّنا على أن الاهتمام الأول عندها هو طعام الفم ، شأنها فى ذلك شأن الطفل . فإذا ارتقت الشعوب إلى درجة معينة فى سلّم التحضر الاجتماعى ظهر اهتمامها بالغذاء الوجدانى ، إلى أن تبلغ الدرجة العليا فى النضج الإنسانى ، فإذا اهتمامها

يتّجه إلى الغذاء العقلى . . ولكن هذه المراحل ليست منفصلة الحلقات ، فالأمة المكتملة كالرجل المكتمل يتغذى بكل هذه الأطعمة الثلاثة فى وقت واحد ؛ ولكن تبقى بعد ذلك فروق بين درجات هذه الأطعمة . وهناك تفاضل فى المستوى الغذائى لهذه الأطعمة عند مختلف الأمم . ففى تلك الأمم والشعوب التى توصف بأنها الراقية المتحضرة تصل فيها القيمة الغذائية لطعام الفم والروح والعقل إلى درجة من الدسامة والثراء لم تبلغها بعد أمم توصف بأنها متخلفة أو نامية . وهناك من البلاد ما ليس لديها من طعام الفم غير الضئيل القليل ، ولكن طعامها من نتاج الروح والعقل كثير غزير ، وهى فى الغالب تستطيع بوجدانها المتألق ، وفكرها المتحرك ، أن تصل إلى وفرة طعام الفم . كما أن هناك من الأمم ما تتمتع بطعام الفم الدسم ، وليس عندها من ثراء الوجدان وعمق الفكر ما يرفعها إلى المستوى الإنسانى الحضارى ، فتظلّ راقدة هاجعة فى مكانها كالحيوان الرابض الشبعان إلى أن تفطن إلى قيمة الطعام الوجدانى والعقلى ، فتنهل من هذا المورد الراقى بما يقيمها حيّة موجودة على خريطة الحضارة الإنسانية المعاصرة .

وإنه لمن اليسير على كلّ فاحص ودارس أن يصنّف الأمم فى جداول إحصائية تبعاً لما لديها من طعام للفم وللروح وللعقل ، وعندئذ يتّضح مكانها الحقيقى تحت شمس التقدم البشرى . .

وفى هذا الكتيب لقمة من كل لون من هذه الألوان الثلاثة للطعام : طعام الفم ، وطعام الروح ، وطعام العقل . نرجو أن تكون فاتحة لشهوة الناس . .

توفيق الحكيم

طعام الفم

إنهاء الجوع :

« إنى لم أزل فى منطقة الأمل وعلى أرض الأحلام وأنا فى نهاية العمر ، لكن ما تبقى لى من أنفاس سأقفها لهذا الهدف » .

هذا من غير شك حلم البشرية . . أن يتحقق يوماً إلغاء الجوع ، ويصبح « الطعام لكل فم » . . ولقد كنت شرعت فى تقديم مذكرة فى هذا الشأن إلى هيئة اليونسكو ، عندما كنت مندوب مصر الدائم لديها فى عام ١٩٥٩ ، ولكنى عدلت عن تقديم تلك المذكرة ، خشية أن أكون قد أغرقت فى التفاؤل والخيال . . وإذا بى أتلقى دعوة إلى مؤتمر ، أو على الأصح ، مائدة مستديرة تمس هذا الموضوع ، بعنوان : « البحث عن نظام جديد للاقتصاد العالمى » ، وأرفق بهذه الدعوة كتاب نشرته هيئة اليونسكو لتعميق فكرة هذا الاجتماع ، كما ألحقت به قائمة بأسماء المشتركين فى الندوة التى اجتمعت فى مقر اليونسكو بباريس ، فى يونيو الماضى ، وكان عدد المشتركين فى الاجتماع لا يزيد على الثلاثين ، اختيروا

بأسمائهم ، وروعى فيهم أن يكونوا بعيدين عن المناصب الحكومية . . فالاجتماع لا يمثّل دولاً ولا حكومات ، بل شخصيات غير رسمية . . وكانت الأسماء فعلاً موضع احترام . . فمنهم خمسة من الحائزين على جائزة نوبل ، كما كان من بينهم رؤساء وزارات ووزراء سابقون ، ومنهم من كان رئيس دولة مثل « ويلى برانت » المستشار السابق لألمانيا الاتحادية ، وكلهم ينتمون إلى قارات وبلاد من الشرق والغرب ، وإلى مختلف الأديان والعقائد والأيدلوجيات . .

ولم يكن فى نيتى أن أكتب أو أنشر شيئاً عن هذا المؤتمر لو لم يصل إلىّ أخيراً ما ينبئ بأن موضوعه ستكون له نتائج من واجبى إعلانها . . وليس مما يتسع له المقام هنا الإشارة إلى كلمات الأعضاء كلهم ، ولكن لا بد من ذكر فقرات ذات مغزى للمستشار السابق « ويلى برانت » ، نوه فيها بقيمة التضامن الدولى فى هذا المجال ، وقال إنه سبق له حضور مؤتمر أطلق عليه « حوار التضامن » ، اتفق فيه الأعضاء على القيم الأساس : الحرية ، والعدل ، والتضامن ؛ ولكن الصعوبة ظهرت عندما واجهوا المشكلات الواقعية للاقتصاد العالمى ، وخاصة ما تعلق بالمواد الأولية ، والعلاقات الجديدة بين البلاد الصناعية والبلاد النامية ، والواجبات تجاه البلاد السائرة فى طريق النمو . . إلخ . ولا يستغرب من رجل سياسى مثل « ويلى برانت » أن يكون كلامه قائماً على الواقع . . فى حين كان رأيى أن

حصر البحث فى نطاق هذا الواقع وحده ، دون سند من رؤية بعيدة ، قد يسمى خيالاً ، لا يمكن أن يؤدى إلى خطوات حاسمة فى التحولات والتغيرات البشرية الكبرى. ولذلك قلت كلمتى ، وهذا نصها :

اسمحوا لى أولاً أن أشير إلى عبارة وردت فى كتاب « العالم نحو التغيير » ، الذى قامت بطبعه هيئة اليونسكو ، وهو مما يتناول موضوع اجتماعنا . . وهذه العبارة هى : « إن وضع نظام :جديد للاقتصاد العالمى فرصة للسلام لا ينبغى أن تضيع » ؛ لكن عبارة أخرى وردت أيضاً تحمل على اليأس ، بقولها : « إن فكرة وضع نظام جديد للاقتصاد ضرب من الخيال » . . وعندى أنه لكى نطرح عنا اليأس ، يجب ألا نزدرى كلمة الخيال ، ويكفى أن نتذكر أن كل تقدم عملاق فى تاريخ البشرية قد اعتبر فى أول أمره من قبيل الخيال ، فمنذ خمسين عاماً فقط ، كانت الرحلة إلى القمر تعتبر إغراقاً فى التخيل . . وإنى لأذكر كلمة للعالم العبقرى « أينشتين » ؛ قال فيها : « إن الخيال أهمّ من المعرفة » . . لماذا قال ذلك هذا الرجل الذى تقوم حياته على العلم ؟ . . لأنه يعلم أن المعرفة الخلاّقة ليست سوى ثمرة للتخيّل . . يجب إذن أن نتمسك بالشجاعة والإيمان بمستقبل السلام ، هذا السلام الذى ينظر إليه اليوم على أنه خيال بعيد . . ولكن ما السلام ؟ . . إن السلام ليس سوى نتيجة لنظام اقتصادى جديد ، يقوم على العدل الإنسانى ، إذن لا

سلام بغير عدل . ولكى نحقق هذا العدل يجب البحث فى نظام جديد للاقتصاد . . كل هذا مرتبط — منطقيّا — بعضه ببعض ؛ ولكن — عمليّا — تحقيق ذلك فى منتهى الصعوبة ، أولا : من الذى سيتركنا نغير أو على الأصح نهزّ دعائم النظام الاقتصادى الحالى ؟ . . إن تغيير الواقع الحاضر للاقتصاد العالمى معناه بكل بساطة انهيار هذا البناء الضخم للمجتمع المشيّد على هذا الاقتصاد القائم ، فلا بدّ إذن لكى ننشئ نظاماً اقتصاديّا جديداً أن ننشئ مجتمعاً جديداً . . ويبقى أن نعرف بماذا نبدأ ؟ . . هل نبدأ بالمجتمع الذى يخلق الوضع الاقتصادى الجديد ؟ أو نبدأ بالنظام الاقتصادى الجديد الذى يشكل المجتمع الجديد ؟ . . وإنى أقصد بالمجتمع هنا مجتمع البلاد المتقدمة القادرة على إعطاء العدل . . وهنا المشكلة الحقيقية : من الذى يرغم البلاد القوية الغنية على تغيير المراكز التى تحتلها ؟ . . إذا سئلت عن الجواب ، فإنى أقول : فلنترك جانباً الدول والحكومات ، ولنتجه مباشرة إلى الرجال ذوى العزائم ، المدافعين عن السلام : «الحكماء» ، كما يسميهم «جان دورميسون» ، فهم بما ينطوون عليه من إخلاص وأمانة فى حمل القضية — يستطيعون العمل على تغيير العالم . وتغيير العالم مرتبط بتغيير الاقتصاد . والذى يغير وجه الاقتصاد هو العلم . . ولقد قام العلم فعلاً بأبحاث محدودة حتى الآن لاكتشاف موارد جديدة للطعام . . ولكن هذه الأبحاث لم تزل ، مع

الأسف ، فى نفس المرحلة التى كانت عليها الأبحاث النووية منذ خمسين سنة ! . . لماذا إذن قفزت الأبحاث النووية كل هذه القفزات الجبارة ؟ . . الجواب : الدول القوية لها مصلحة فى تشجيع ودفع هذه الأبحاث لأغراض سياسية وعسكرية ، فى حين أنّ توجيه هذه الأبحاث لإطعام البشر وإقرار العدل الاقتصادى لم يزل بعيداً عن اهتمام القوى العظمى ، التى يهمها فى المكان الأول إنفاق المليارات من أجل تحسين سلاح رهيب مدمر ، قادر على تأكيد التفوق والسيطرة . .

يجب إذن أن نبحث فى مكان آخر عن الموارد اللازمة لتمويل البحوث العلمية المتقدمة التى تقفز القفزات الجبارة لاكتشاف الطعام لكل البشر . وليس أمامنا إلا أن نتجه إلى الشعوب نفسها . . شعوب العالم جميعاً . . الشعوب (بملاليمها) . ومعها الأثرياء الكرماء (بملياراتهم) . . ومن حصيلة هذه الأموال ينشأ صندوق دولى لتنشيط العلم الذى يلغى الجوع فوق كوكبنا الأرضى . . وعلى أصحاب العقول والقلوب تقع اليوم مسئولية الإقناع بضرورة إنشاء هذا الصندوق . فقد آن الأوان لإنهاء جوع البشر فوق كوكبنا ، وبغروب شبح الجوع يشرق فجر السلام .

* * *

هذه الكلمة التى لم أكن أتوقع أن يكون لها صَدى ، قد أدّت إلى أن يُدْرَج اقتراحى بإنشاء هذا الصندوق الدولى فى قائمة المقترحات التى

ستعرض على المؤتمر العام لهيئة اليونسكو خلال هذه السنة . . كما أدرج اقتراح آخر فى هذا الصدد للعالم الطبيعى « ألفريد كاستلر » الحائز على جائزة نوبل فى بحوثه عن الضوء والمادة ، طالب فيه باستقطاع عشرة فى المائة من ميزانيات التسليح فى العالم من أجل السلام . . غير أن ضعف ثقتى بالحكومات هو الذى جعلنى أركز على الشعوب ؛ لأن الشعوب هى التى تجوع ، وهى التى تحلم دائماً بالطعام ، وهى – كعادتها – على مدى تاريخها إذا تحمست صنعت المعجزات . . فلا عجب إذا هى نهضت وحملت على أكتافها هذا الصندوق . . ومرحباً بعد ذلك بالحكومات إذا تحركت وتبرعت . . والمشروع لم يدرس بعد فى تفصيلاته ، ولكنها الخطوة الأولى التى حركت أملى ، بعد أن وصلت إلىّ أخيراً قائمة المقترحات . وفيها مشروع «كاستلر» ، ونصه : « تعديل الميزانيات العسكرية بما يتمشى مع هدف النظام الجديد للاقتصاد العالمى ». . ثم مشروعى ونصه : « إنشاء صندوق دولى لتمويل العلوم الخادمة للسلام» . والمشروعان – كما نرى – يكمل أحدهما الآخر . فإذا تحقق هذا التمويل فإن ما يبقى هو جمع العلماء المتخصصين التكنولوجيين والمتمرسين كى يضعوا الخطة العلمية التى تمكن العلم من أن يقفز نفس القفزات المذهلة التى قفز بها الإنسان خارج الأرض ، للوصول إلى الكواكب ، فيقفز بالإنسان هذه المرة فوق أرضه للحصول على الطعام الوافر .

وقد جاء فى الخطاب المرفق بالمقترحات ، ما يجعلنى أرى من الضرورى إذاعة كل ذلك على نطاق واسع بوسائل الإعلام المختلفة . .

* * *

وإنى لأطمع فى أمر محبّب إلى نفسى بصفة خاصة : هو أن تكون الشعوب العربية وأغنياؤها وحكوماتها هى المتحمّسة ، وهى السبّاقة إلى المناداة والمساهمة فى تمويل هذا الصندوق ، حتى يكتب فى تاريخ البشرية أن العلم الذى وجه إلى إنتاج الأسلحة المدمّرة كان بتشجيع العالم الغربى ، فقام فى مواجهته العلم الذى اتجه إلى إطعام الشعوب بتشجيع من العالم العربى ، وليس هذا بغريب من بلاد نشأت فيها الأديان السماوية التى تحض على إطعام المسكين ، والرحمة بالفقراء والمعوزين . نعم . . إنى أطمع فى أن يكون هذا المشروع هو : « مشروع العالم العربى » ، حتى إذا ارتفع صوت العرب فى العالم بأنهم هم المتبنّون للعلم الجديد الذى يطعم البشرية – فأىّ قوة معنوية بين شعوب الأرض سوف يكتسبونها ؟ ! وأى مجد سوف يكتب من جديد للعرب فى تاريخ الإنسان ؟ . .

إنى لم أزل فى منطقة الأمل ، وعلى أرض الأحلام . . والمشروع على الورق ، يحتاج إلى تنظيم عملى وإلى دعوة وهّمة . . وأنا فى نهاية العمر . . لكن ما تبقى لى من أنفاس سأقفها لهذا الهدف . .

والله أسأل أن يتيح لهذا المشروع فى مصر والبلاد العربية من يرعاه بهمته وقوته وفكره ، فيشير بالرأى أو يعمل بالقدرة . . .
إن الله سميع مجيب .

كيلو اللحم بمليم !

نعم . ولا تضحكوا . . ولا تعتبروا هذا حلماً أو تخريفاً . . إنه أمر ممكن . وفكّروا قليلاً : أيهما أسهل : أن نحقّق بالفعل ما لم يحقّقه جنّ سليمان الذى جاء بعرش بلقيس مزهوًّا من مسافة لا تقلّ عن ألف ميل ، فنجىء نحن الجنّ البشرىّ اليوم بصور المريخ ، ونحرك مركبتنا فوق سطحه ، ونأمرها بالحركة والوقوف والحفر والبحث ، ونصلح ذراعها المعطلة ، وكل ذلك من مسافة تبعد عنا بمائة مليون ميل ؟ ! ! أيهما أسهل ؟ هذه الخرافة التى سبقتها خرافة أخرى هى سيرنا بأقدامنا فوق سطح القمر نتطلع إلى أرضنا الجوعى ، ونضحك من حالنا ؟ ! . .
أيهما أسهل ؟

أيهما أسهل أيها الناس ؟ . . تكلموا . . تحقيق هذه الأعاجيب التى ما كان يتصورّها عقل بشر وإدراك جن ، أو تحقيق ذلك الأمل المتواضع فوق أرضنا بإنتاج مادة « البروتين » التى يتكون منها اللحم والطعام البناء للجسم بالوفرة القاضية على الجوع البشرى ؟ . . ما من أحد اليوم يستطيع

القول بأن هذا مستحيل . . وقد أجريت بالفعل بعض تجارب ناجحة فى هذا السبيل ، ولكنها جهود فردية يعوزها التمويل الضخم والإرادة الجماعية . والسؤال الآن لماذا لا تتجه إرادة البشر إلى الحصول على طعام للجائعين ، كما اتجهت إلى الحصول على أحجار فوق سطح الكواكب ؟ !

إن قطعة لحم أصبحت اليوم لثلثى سكان العالم أبعد عندهم من كوكب يلمع فى السماء ! . . لماذا لا تتحرك الإرادة البشرية لثلثى سكان العالم نحو توجيه العالم إلى القضاء على جوعهم ؟

أيها الجياع . . يا جياع العالم ، ثقوا أن قطعة اللحم البعيدة عنكم بُعْدَ النجم – تستطيعون الحصول على الكيلو منها بمليم ، لو اجتمعت كلمتكم ، واتّحدت إرادتكم ، وعلت صيحتكم ، فهزّت العالم ودفعت العلماء إلى وقف بحوثهم من أجلكم ومن أجل طعامكم . .

ولابد لكم الآن من صوت الأفهام وصرير الأقلام لإيقاظ الضمائر والقلوب . والأولى أن ترتفع الأصوات من الشعوب العربية التى ظهرت فوق أرضها الأديان السماوية التى تحض على محاربة الجوع بإطعام الجياع ، فيتم بذلك تحقيق ما أمرت به السماء ، بأن يضاف إلى الماء والهواء ما يكمل الثالوث الحيوى للبشر : الماء والهواء والغذاء . . هل تستجيب شعوبنا العربية للنداء ؟ . .

لن أكفّ عن ندائى حتى أرى له مجيباً فعالاً . .

وبعد ذلك تأتى مرحلة التفكير فى الطرق العلمية لتحقيق هذا الحلم المتواضع بالنسبة إلى خوارق العلم التى تحققت . . وهذه المرحلة تحتاج إلى تنظيم المنظمين وخبرة الخبراء وعلم العلماء . والرأى فيها للناس . .

وإلى أن أموت — وموعد موتى قريب — لن أرتاح حتى أرى العلم جادًّا فى هذا الطريق . .

أريحونى أيها الناس . . وأريحوا جياعكم وجياع الأرض .

مؤتمرات ومنظمات التغذية :

قد يسأل سائل : ما الفرق بين ما تنادى به اليوم ، وما قامت به فعلا وتقوم به المنظمات والمؤتمرات والهيئات الغذائية ؟ . . . والجواب عن هذا السؤال هو فيما سبق أن نشرته عام ١٩٦٣ فى كتابى « الطعام لكل فم » ، حيث جاء فيه ما نصه : « . . . إن هيئة الأمم المتحدة تضّم منظمة للأغذية والزراعة (فاو) تبحث مشكلة الطعام على أساس علمى واقعى ، فتعقد المؤتمرات للنظر فى تحسين الزراعة فى المناطق المجدبة . وتبصّر الزراع فى الدول النامية بخير وسائل الإنتاج على قدر الإمكان . كل ذلك فى حدود الواقع ، أى داخل إطار النظم القائمة والاقتصاد القائم . . . ثم فى حدود الأسس العلمية المعروفة والمعمول بها فى الحاضر فقط ، دون البحث فيما يمكن أن يكون عليه العلم فى الغد ، ودون الخوض فى تصور

عالم جديد . . . ولم يكن هذا فى نظرى هو كل ما يجب عمله . . . إن الاكتفاء بمثل هذه المنظمات التى تقوم على أسس الأمر الواقع والأوضاع القائمة من علم حاضر ، ومجتمع قائم ، واقتصاديات قائمة ، شأنه شأن الاكتفاء بحالة العلم فى القرن الماضى لتصنع على أساسه سفينة فضاء . . . وهذا ما لم يحدث وما لا يمكن أن يحدث . . . إن الذى حدث شئ آخر : هو البدء بالخيال والتصور ، أى القفز فوق حدود العلم المعروف وقتئذ بنظرياته المحدودة القاصرة ، والشروع فوراً وفعلاً فى بناء سفينة فضاء من الخيال على أساس نظريات علمية لم تكتشف بعد . . . »

هذا ما نشرته منذ أربعة عشر عاماً . . . وأضيف اليوم أن ما أقصده هو استخدام العلم الجديد الذى أخرج الإنسان من نطاق الجاذبية الأرضية ، وجعله يسير بقدميه فوق سطح القمر . هذا العلم المتقدم يجب عليه أيضاً أن يخرج الإنسان من نطاق الجاذبية الاقتصادية القائمة بقوانينها المعزوفة فى الأسواق التجارية ، ليجعله يسير فوق سطح عالم جديد ، الغذاء فيه مثل الماء والهواء . . .

وإذا كان هذا يبدو خيالاً — فقد كان مجرد التفكير فى السير على وجه القمر خيالاً ، ولكنه تحقق . . . وأصبح هذا عند الناس أمراً طبيعيّا : أن ينطلق بعض الآدميين إلى الكوكب الفضى ، ويعودوا حاملين ترابه ! . . . فلماذا نيئس من تحقيق الوصول إلى كوكب الطعام لكل فم ؟

إنى واثق أن هذا سوف يحدث يوماً . . . سوف يحدث ويصبح حقيقة . . . سوف يحدث . . .

وأرى من الضرورى تصحيح ما تبادر إلى الذهن من أنى قصدت فقط الطعام العلمّى مهملا نتيجة خيرات الأرض ، وهو ما لم يخطر ببالى ، ولا هو بالمعقول . فالالتجاء إلى أعاجيب العلم الحديث هنا ليس لاستحداث طعام علمّى فقط ، ولكن قبل كل شىء للانتفاع بقدرات العلم التكنولوجية والكشفية المتقدمة لاستخراج كل خيرات الأرض من قلب الصحارى المجدبة إلى مزارع ومراع خضراء ، وجعل ما فى البحار من غذاء يكفى البشر جميعاً ونحو ذلك . . .

وإذا كنت قد لجأت فى أول الأمر إلى ما يوحى بما أوحت به كلماتى ، فهذا من قبيل إثارة خيال الناس ، كما حدث عندما تخيل البشر إمكان طيران الإنسان فى السماء كالعصافير فى عهد عباس بن فرناس ، وكما تخيل شعراؤنا وأهل الخيال فينا يوم تأملوا القمر وحلموا بالوصول إليه ؛ فكان أن ألهبوا خيال البشرية ألى أن تحقّقت بالفعل تلك الأحلام . . . والخيال له عند البشر قوة دافعة . . . أما العمل على تحقيق الآمال والأحلام فمكانه الخطوة التالية ، عندما يتقدم العلماء والخبراء لبحث الطرق العملية الممكنة ، ووسائل تمويلها ، مستعينين بأحداث اكتشافات العلم والتكنولوجيا . . .

وأنا الآن – كما سبق أن قلت – فى مرحلة الدعوة . . . نعم . لابد لكل مشروع أو رسالة من أن يبدأ بالدعوة . . . ودعوتنا الآن هى أن تستقرّ فى الأذهان ضرورة أن يكون الطعام لكل فم من المطالب التى يجب أن تدرج ضمن (حقوق الإنسان) بمعنى أن يكون حق الطعام فى حده الأدنى ، وهو رغيف الخبز وقطعة اللحم أو الجبن أو البقول ـ حقًا مجانيًا لكل إنسان على هذه الأرض ، على نحو ما تقرّر له فى «حقوق الإنسان» من حقه فى الحرية . حتى الحرية : إن أعطيت الحرية بدون رغيف العيش فأنت لم تعط شيئاً . . . لذلك كان العمل على إدراج حق الطعام لكل فم ضمن حقوق الإنسان المعترف بشرعيتها هو العمل الجدير بإنسان العصر الحاضر أن يناضل من أجل إقراره حقًا من أهم حقوقه الإنسانية ، وهو الحق الذى نادت به الأديان ولم نعمل كثيراً من أجله حتى الآن . . .

الغذاء شاغل الإنسان

مادام الغذاء هو شاغل الإنسان فإنه لم يخرج عن نطاق الفصيلة الحيوانية .

فكل حيوان شغله الشاغل غذاؤه . وكل حشرة ليس لها من نشاط سوى الحصول على غذائها ، والنملة التى تعدّ المخازن المنظمة لتخزين

طعامها قبل حلول الشتاء إنها تتبع فى ذلك نفس النظام الاقتصادى الذى يتبعه البشر ، بل العكس هو الأصح ، وهو أن الإنسان يتبع فى نظامه الاقتصادى الأسس التى سبق للنملة أن وضعتها من قبله .

ولقد كان الإنسان يعتقد منذ أقل من نصف قرن أن الجاذبية الأرضية لا يمكن الفكاك منها ، فكان أن استطاع الفكاك منها . وكان هذا هو أخطر وأعجب ما قام به الإنسان على الأرض هذا التحرر المكانى من الجاذبية الأرضية ، وبقى عليه الآن أن يعمل على التحرر من رباط أهم ، هو الجاذبية الحيوانية . فإذا استطاع الإنسان أن يخرج من نطاق هذه المخلوقات المشغولة بغذائها المادى ، والارتفاع إلى نطاق المخلوقات المشغولة بغذاء معنوى روحى – فإنه يكون قد حقق رسالته . وعندما بشرت الأديان بقولها : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » ، ثم بقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . كان فى ذلك إشارة إلى أن العلم – أى الإدراك الأعلى – هو ما يجب أن يشغل الإنسان الأرقى . . . ولسوف يأتى الوقت الذى يعيش فيه الإنسان مشغولاً بغير الخبز . . . ولكى يصل إلى هذه المرتبة العليا الجديرة بإنسانيته يجب أن نوفر له الخبز ، حتى لا يشغل به ، ويلتفت إلى ما هو أرقى وأعلى . . وإذا لم يكن هذا هو الهدف النهائى للعلم – فما قيمة العلم إذن ؟ ! وما فضل العلماء الذين كرمهم الله تعالى فى آيته الشريفة ؟ ! فتوفير الطعام هو الطريق إلى إخراج

الإنسان من حظيرة الحيوان ، ولكن كيف؟ لست أنا ولا أنت الذى يقرر ذلك ، ولكنهم أهل الاختصاص من خبراء الزراعة والاقتصاد والعلم والتكنولوجيا . . . أما أنا وأنت فكل مهمتنا الدعوة . . . أى تجميع الرأى وإبداء الاستعداد للبذل ، إذا ما اتفق المختصون على برنامج العمل وخطة التنفيذ ، سواء بتنمية الموارد الموجودة أو باستنباط مصادر جديدة . فالمهم ليس الطريقة ولكن النتيجة ، وهى زيادة الطعام واختفاء الجوع . فإذا كانت العقبة هى المال والتمويل فعلينا نحن المؤمنين بالدعوة أن ننهض بهذه المهمة ونستثير الهمم . وإذا وجدت العقبة فى النظم السياسية أو الاقتصادية فعلينا أن نناضل لتذليلها . وكل ذلك لا يبدأ إلا بعد إقرار برنامج العمل وخطة التنفيذ من أهل الاختصاص والعلم .

وأحب أن أوضح مرة أخرى أن قولى بأن كيلو اللحم بمليم فى استطاعة العلم الحديث إنما هو من قبيل الأمل الممكن ، على أساس ما قرأناه عن بحوث علمية محدودة تمكنت بالفعل من استنباط بروتين للحم له نفس الطعم والمذاق كاللحم الطبيعى ، ولكن ليس معنى هذا أن نقصر صندوق التمويل على هذه البحوث المستقبلية ، ونترك الأبحاث العلمية الواقعية لتنمية الموارد الطبيعية ، وهى أجدى بالدعم العاجل ، كما أن قَصْر تفكيرنا فيما هو واقع لن يمنع التفكير فيما هو حلم ، فنحن لم

نقل لأولئك الذين كانوا فى أول هذا القرن يفكرون فى صاروخ أو طائرة تذهب إلى القمر : دعكم من هذا الخيال ، وفكروا فى طائرة تنقل المسافر من بلد إلى بلد كالقطار والسفينة . . . فكان أن ظهرت الطائرة النفاثة والتى أسرع من الصوت ، ونقلت المسافرين ، كما حقق الخيال السفر إلى القمر . . . فتوجيه العلم المتقدم إلى تنمية الموجود وتحسين الواقع هو بدون شك واجبنا الأول . ولكن ما من أحد يستطيع وقف وثبات الحلم وقفزات العلم . . .

كل هذه خواطر قد تكون على هامش موضوعنا . إن جوهر موضوعنا وأساس دعوتنا هو : هل تريدون أن يكون جوع على الأرض أو لا يكون ؟. هذه هى المسألة !. إذا كنتم لا تريدون فلماذا تسكتون ؟

قوة الشعوب

منذ نحو عشرين عاماً ، أى فى سنة ١٩٥٧ ، نشرت كتابى « رحلة إلى الغد » ، وفيه تخيلت أن مجتمع المستقبل بعد ثلثمائة سنة ، أى حوالى سنة ٢٣٠٠ ميلادية ، سوف يكون الغذاء كالماء ، ففى كل مسكن « حنفية » تصب الماء ، وإلى جوارها « حنفية » تصب اللبن ، وربما أخرى أيضاً تصب الشاى أو القهوة . . . على حسب الطلب . . . تخيلات !

ولكننا نعيش فى عصر تتمخض فيه الليالى عن كل عجيبة ، ويكاد الواقع فيه يسابق الخيال . . . ومن حسن الحظ أن بعض تخيلاتى تنقلب أحياناً إلى تنبؤات ، وأن هذه التنبؤات منها ما يصبح حقائق . إذن لا بأس عندى من التخيلات والتخريفات . . . فمن يدرى ؟ ! . . . لقد سبق أن تنبأت ونشرت فى الأربعينات كتاباً قلت فيه بالنص : لا بد لمصر من « ثورة مباركة » . بهذا اللفظ . . . وفى عهد الملكية . . . فجاءت بالفعل ثورة سنة ١٩٥٢ ، وقيل عنها « الثورة المباركة » ، بهذا اللفظ نفسه ! . . . إذن لو تخيلت اليوم أو تنبأت بقيام « ثورة غذائية » فى مستقبل الأيام . على النحو الذى ذكرته فى « رحلة إلى الغد » ، وأصبحت حنفيات الماء فى البيوت تجاورها حنفيات اللبن والشاى والقهوة بالمجان – فهل يكون خيالى قد شطح ، وعقلى قد اختل ؟ ! . . . من يدرى ؟ . . . ولكن . . . وآه من لكن ! . . . ليس تحقيق الأحلام يمضى قدماً . . . فإن العقبات والمعوقات تترّبص بكل تقدم فى الطريق . . . فشوارع الأحلام مثل بعض الشوارع مملوءة بالحفر . . .

وإذا تمكن العلم الحديث بالكشف والتكنولوجيا من توفير الطعام لكل فم – فإن الاقتصاد الحديث أيضاً ليس نائماً ولا غافلاً . . . فلقد ذكرت كذلك فى كتابى أن الاحتكارات العالمية الرأسمالية سرعان ما تحتوى هذا الطعام الرخيص وتضعه تحت سيطرتها ، وتبيع فيه وتشترى . . . وعندئذ

يكون أمامها سلاحان : الأول أن تجهض بسطوتها المشروع كله ؛ وهذا فى رأيى سلاح مفلول ، لأن قوة الشعوب الجائعة كفيلة بأن تحرف فى طريقها هذا السلاح . . . والآخر وهو الأذكى والأمكر . هو أن تتولى هى بنفسها إنتاج هذا الطعام الرخيص الذى يمسك الرمق . ويسكت أفواه الجائعين ، ولكن بطريقة تمكنها من الربح . . . وذلك على غرار التعليم المجانى الذى يمنح للجميع ، ولكن من خلفه الدروس الخصوصية باهظة الثمن . . . وكذلك الطب المجانى الذى يفتح بابه للجميع ، ولكن من باب خلفى . . . العيادة الخاصة لمن يدفع الأجر . . . فالاحتكارات سوف تصنع كذلك فى الطعام ما صنعته فى السيارة الفورد الفاخرة القديمة الرخيصة ، ولكن إلى جانبها تصنع الفورد الفاخرة التى تبهر الناظرين وتغرى المستهلكين . . كل هذه أسلحة وعقبات تحصنت بها الاحتكارات . . تخيلت وتنبأت كذلك فى كتابى بأنها قد أزيلت بقوة الشعوب !

القنبلة النووية والقنبلة الغذائية

لو أحصيتم المليارات التى أنفقت وتنفق فى صنع قنبلة الرعب النووية وتحسينها وتخزينها لهالكم الأمر . . . على أن الهول الأكبر هو أن هذه المليارات إنما هى حصيلة كدح الشعوب الجائعة . . . إن طعامها لا يصل إلى فمها . ولكن إلى مصانع الدمار ، ويبرر أصحاب هذه المصانع

الشيطانية عملهم بأنه ضرورة لحفظ السلام . . . نعم ،إن قنبلة الرعب تكفل السلام ، ولكن لحامليها فقط . أما الحروب فهى باقية مستمرة بين الشعوب الجوعى ، بدافع وتحريض من أصحاب قنبلة التدمير . . . إنهم يوقعون الجياع فى محاربة بعضهم بعضاً ، ويصنعون لهم ويبيعونهم الأسلحة التجارية بدلاً من الطعام ، فيحرمونهم غذاءهم ودماءهم وأرواحهم ، ويجنون هم الأرباح فى سوق المطامع الاقتصادية والسياسية والعسكرية . . . فالقنبلة النووية حفظت سلام الكبار ، وانتزعت طعام الصغار . . .

أفيقوا إذن أيها الجياع . . . واصنعوا قنبلتكم . . . نعم . إن لكم أنتم أيضاً قنبلة تحميكم ، وهى ليست قنبلة رعب وتدمير ، ولكنها قنبلة أمان وتعمير ، واطمئنان وتحرير : إنها « القنبلة الغذائية » ، وهى القنبلة التى تقيكم قنبلة الرعب . وتحرركم من تجار السلاح ، وهى التى ستوحّدكم على أرض السلام الحقيقى . . . سلامكم أنتم . . . وهى التى سترفعكم من حمأة الجوع المادى إلى حيث تشعرون بالجوع الروحى ، فتسعون إلى طعامه العلوّى الذى يعمر قلوبكم بالإيمان ، وعقولكم بالمعرفة . . .

وبهذا تصلون إلى مراتب الرقى البشرى . . .

ومازلت أرجو من الشعوب العربية التى ظهرت بينها الأديان السماوية

أن يرتفع فيها صوت النداء ، وأن تكون هى السباقة بالدعوة . . .

الطعام والعالم الثالث

مهمتنا هى أن نغرس الأمل فى النفوس ، وأن ندخل اليقين فى القلوب بأن التقدم والرخاء ممكن تحقيقه على هذه الأرض ، ولكن ذلك يجب ألاّ يجعلنا نغفل عن الجانب القاتم من الصورة ، فالطرق ليست ممهدة دائماً للسير ، فالعقبات والعوائق كثيرة ، ومنها ما ينتج عن القوانين الاقتصادية نفسها عندما نواجه خطة التوسع فى الإنتاج الزراعى . فهذا التوسع لابد أن يتم بمعاونة التكنولوجيا واستخدام الآلات الحديثة ، أى الميكنة الزراعية التى تعمل فى يوم ما تعمله الأيدى البشرية فى شهر . فهل لنا أن نستنتج من ذلك أن الآلة سوف تطرد الفلاح من الريف . فيهجر الريف والزراعة ويلجأ إلى المدن والصناعة ؟ . . وعندئذ نتساءل عن مدى تقدم الصناعة واستعدادها لقبول هذه الأفواج من الفلاحين المهاجرين ، حتى لا يتعرضوا لخطر البطالة . . نفهم من ذلك أن التوسع الزراعى أو ما يطلق عليه "Power Farming" لابد أن يقترن بتقدم صناعى . . وهذا التقابل والتوازن هما ما تحرص عليهما البلاد الصناعية المتقدمة ، فهى لا تهمل الزراعة ، إنها تعنى بإنتاجها الزراعى عنايتها بإنتاجها الصناعى . أما فى بلادنا ، أى بلاد العالم الثالث ، حيث الصناعة ليست

على هذا المستوى من التقدم ، فلا شك أن المسألة قد أثارت اهتمام الباحثين المتخصصين وعلى رأسهم رئيس مجلس الغذاء العالمى المهندس سيد مرعى فيما نشره من كتب وأبحاث . . كذلك يرتبط بهذا الشأن موضوع آخر : هو مدى تأثير التوسع الزراعى فى بلاد العالم الثالث على الاقتصاد الدولى كله . أى لو افترضنا أن العالم الثالث قد استطاع — على المدى الطويل وباستخدام التقدم العلمى الحديث والتمويل الذاتى الكبير – أن يستخرج من أراضيه الواسعة من الغذاء ما يكفيه ويفيض ويغرق أسواق العالم أجمع فما الذى يحدث ؟ لا ريب أن ذلك سوف يؤدى إلى إحداث تغيير فى النظام الاقتصادى العالمى . . ما شكل هذا التغيير وما مداه ؟ هنا المسألة . كل ما نرجوه هو أن يكون فى الإنتاج الغذائى الوافر نعمة لنا وللبشرية ، ولا ينقلب إلى نقمة فى يد الجشع البشرى ، وأن يفكر الباحثون المتخصصون فى كل الاحتمالات ليواجهوا العقبات ويعدوا الدواء قبل الداء .

نقابة السيدات

توفير الطعام للناس لا يتم فقط بزيادة الإنتاج ، ولكن إلى جانب ذلك بنقص الاستهلاك ، فالذى يحدّد أسعار السلع ليس المنتج وحده فى كل الأحوال ، ولكن المستهلك أيضاً يستطيع أن يؤثر تأثيراً مباشراً وقوياً

فى رفع أو خفض هذه الأسعار ؛ فقد قيل إنه خلال الحرب العالمية الثانية ارتفع فى إنجلترا سعر السمك ، فاجتمعت سيدات البيوت وقررن الامتناع عن أكل السمك بعض الوقت ، فانخفض سعره فى الحال . فإذا تصورنا أن سيدات بيوتنا قد نظمن أنفسهن فى شبه نقابة مثل نقابة الحلاقين - التى قررت أن تغلق حوانيتها يوم الاثنين - وقررت نقابتهن تحديد استهلاك صنف من أصناف الطعام ، ونفذن جميعهن القرار بكل دقة وحزم وعزم - فلا بدّ أن سعر هذا الصنف ينخفض . فالمسئول عن ارتفاع أسعار المواد الغذائية والكسائية هن حضرات السيدات .

ولنترك الآن الكساء على جنب ، لأنها منطقة محرمة تذود عنها المرأة بكل قوتها ، وقوة المرأة شىء مخيف ! ولنحصر الكلام فى الطعام ، لأن المسئولية فيه موزعة ، بل إن المرأة تستطيع أن تضعها كلها على كاهل الرجل بقولها : إنه هو الذى يهتم بالأكل . وهو الذى يدخل بيته ويبدأ كلامه لزوجته بعبارة « طبخت لنا إيه النهارده ؟ » . . . وأغلب الزوجات يحفظن الحكمة القائلة : « إن أقرب طريق إلى قلب الزوج معدته » . وكل زوجة بالطبع تريد دائماً الاستيلاء على قلب زوجها ، لأن قلب الزوج هو أقرب طريق إلى جيبه ! وهناك دائماً علاقة وثيقة بين فتح القلب وفتح المحفظة ، كما أن فتح المحفظة يفتح للمرأة شارع الشواربى ! . . . ونخرج بذلك من الطعام إلى الكساء . ويتغير موضوعنا

من الطعام لكل فم إلى الكساء لكل زوجة . وكساء المرأة يقترن بالأناقة ، والأناقة تحكمها « الموضة » . . . والموضة هي – والعياذ بالله – الدكتاتور الذى لا يناقش ، وضحيته فى آخر الأمر جيب الرجل . . فلنبتعد بسرعة من منطقة الكساء . وتكفينا الآن قضية الطعام . وما دامت المرأة بهذه السلطة والقوة . فلماذا لا نعهد إليها هى بمهمة تنظيم الاستهلاك . ألا يمكن النظر فى أمر تأسيس هيئة مركزية من النساء تتبعها فروع فى كل حى من أحياء المدينة . وفى كل بندر من بنادر القطر ، تجتمع كل شهر أو كل أسبوع لتخفيض أسعار الأغذية . فإذا وجدت ارتفاعاً فى سعر صنف من أصناف الغذاء بادرت باتخاذ قرار واجب التنفيذ فوراً على كل بيت وأسرة بتحديد مقدار استهلاكه ، أو اقتراح بديل له من المتوفر زهيد الثمن ، إلى أن يرتفع ثمنه هو الآخر بحكم الطلب ، فتحدد عندئذ استهلاكه وتقترح غيره . وهكذا . . بمعنى أن يكون لجمعية أو نقابة السيدات أو الهيئة المركزية والهيئات الفرعية لنساء البلد الهيمنة والسيطرة على أسعار الغذاء . وإذا كانت المرأة تصيح دائماً مطالبة بالمساواة بالرجل فهذا تواضع منها فى نظرى . لأن الرجل بكل نظرياته الاقتصادية عاجز عن مكافحة الغلاء ؛ أما المرأة فهى أقدر فى رأيى على حل الكثير من المشاكل ، كما أنها أقدر أيضاً على خلقها . والآن أيها الرجل العاجز عن علاج الغلاء فتش عن المرأة ! . . .

مسئولية المرأة :

تحميل المرأة بعض المسئولية فى موضوع الطعام ليس من قبيل اللوم أو التحدى أو المشاغبة ، إنما هو تقرير الواقع واحترام لكيانها واعتراف بما لها من أهمية وتأثير فى الاقتصاد العام . ولما كان الاقتصاد مرتبطاً بالطعام فلابد إذن من البحث عن المرأة ، لأن الطعام مرتبط بالمرأة منذ الأزل ، فطعام الطفل من ثدى المرأة ، فإذا صار الطفل رجلاً فطعامه من يد المرأة . بل إن خروج الرجل من الجنة كان بسبب امرأة وطعام فى صورة تفاحة ! ولا نستبعد أن تكون امرأة قد أخرجت رجلاً من البيت بسبب تفاحة «أمريكانى» ، ولكن الأغلب اليوم أن تكون شراهة الرجل هى السبب . وقديماً كان المثل السائر هو : «قال للجارية اطبخى قالت يا سيدى كلف» ، ولكن المرأة اليوم لم تعد جارية ، إنما هى ربة البيت وسيدة المصروف ، وأصبح الرجل مجرد ضيف . وبذلك هى صاحبة الشأن فى أن تقدم له ما تراه هى من طعام . فإذا دخل البيت ونظر إلى المائدة وصاح : — إيه ده ؟ ! . .

فإنها تستطيع أن تقول له بكل هدوء : — الأكل .

— دا اسمه أكل ؟ ! خضار «قرديحى» !

— وماله الخضار القرديحى ؟ ! لازم يكون بلحم ؟ !

– طبعاً. أمال اللحم اخترعوه ليه ؟ !

– يا حضرة الزوج المحترم ، أنا ست البيت المسئولة عن الميزانية .

– وهل الميزانية لم تسمح بوجود مخلوقات اسمها اللحوم والفراخ والحمام ؟ ! . .

– الميزانية لا تعرف مخلوقات اسمها اللحوم والفراخ والحمام . إنها تعرف فقط مخلوقات أخرى اسمها الأرقام ، نعم الأرقام يا سيادة الزوج الهمام ! . .

– أعوذ بالله من شر الأرقام ، ومن شر القرديحى من الطعام !

– يا حضرة الزوج . . يجب الاعتراف بالأمر الواقع .

– يا حضرة الزوج . . يجب الاعتراف بالأمر الواقع . .

– الأمر الواقع ؟ ! أنا الواقع من الجوع ؟

– بالاختصار ما طلباتك ؟ !

– طلباتى هى الخروج من منطقة القرديحى . .

– يعنى طالب الدخول فى مناطق أخرى . .

– وهل توجد مناطق أخرى خلاف منطقة اللحوم إلا إذا كان قصدك منطقة اللحم الأحمر ومنطقة اللحم الأبيض ؟ !

– ولماذا تنسى المنطقة المتجمدة ؟ !

– آه صحيح . . البحر الأحمر والبحر الأبيض والبحر الشمالى المتجمد . .

– أتدخل الآن فى الجغرافيا ؟ !

– أنت التى دخلت بى لغاية البحار المتجمدة !

– أنا لم أتكلم عن بحار يا سيدى الزوج ، ولكنى أتكلم عن اللحوم المتجمدة والمعروضة فى أسواق الجمعيات الاستهلاكية . .

– وماله ؟ ! نعمة من الله ! . . وهل أنا رفضت المتجمدات ، حتى المعلبات ؟ .

– وهل تظن هذه الأشياء بنقود أو بغير نقود ؟ !

– عدنا إلى الكلام الذى يمغص البطن ! . .

– العجيب أنك تفكر فى بطنك ولا تفكر فى جيبك . .

– طبعاً . . لأن بطنى هو بطنى ، ولكن جيبى هو فى جيبك . .

– إذن أنا المسئولة عن النقود ، وعن وجوه الصرف . ومن واجبى أن أستعمل القلم الأحمر . .

– تقصدين قلم الشفايف ؟ !

– لا يا حضرة . . أقصد قلم الشطب ؟ . .

– أعوذ بالله !

– نعم . . شطب طلباتك . . لأن الميزانية لا تسمح ! .

– تتكلمين الآن بلغة وزير المالية والاقتصاد !!! ولعلها رحمة بالناس وبالأزواج أن عينت المرأة وزيرة فى الوزارات المختلفة إلا وزارة واحدة هى وزارة المالية والاقتصاد ! . . وإلا كانت . .

– كانت ماذا ؟ ! كانت ولا شك قد أصلحت الميزانيات ، وعرفت كيف توازنها . . ولكنه حكم الرجل وغروره ، يترك للمرأة ميزانية البيت ويبعدها عن ميزانية البيت الكبير أى الدولة ! . .

– دخلنا فى السياسة ، بعد أن خرجنا من الجغرافيا ! . . كل ذلك ولم نحل المشكلة الرئيسية . .

– وما المشكلة الرئيسة ؟ !

– الأكل . . أين الأكل ؟

– الأكل أمامك من الصبح . .

– القرديحى ! . . قرديحى قرديحى . . هاتى وأمرى إلى الله . .

– واحمد ربك من فضلك ! . .

– حمدته وشكرته ! . .

وهكذا يبدأ وينتهى الحوار المألوف فى كثير من البيوت بين الكثير من الأزواج والزوجات . والآن فإن المشكلة هى فى يد الزوجة ، وعليها أن تقوم بمسئوليتها فى موازنة ميزانية البيت الصغير لأنها الأساس فى موازنة الميزانية الكبرى للبيت الكبير . .

رأى إلى المسئولين :

حرصت على أن أسير كعادتى على قدمىّ بين الناس ، على الرغم من تحذيرات الذين خشوا علىّ من التعرض للقنابل المسيلة للدموع . . . وصادفت من كان يقول : ما رأيك فى الطعام لكل فم ؟ » . . ولم يكن القائل من الشباب المتحمسين أو الثائرين ، بل من بعض الشيوخ البادى عليهم الوقار والاتزان . . . وأدركت بعض الأسباب لما حدث ، وما يمكن أن يحدث ، وجدت من واجبى أن أصارح بها أبناء وطنى من المسئولين ، وإلا كنت غير جدير بحمل أمانة القلم . ويتلخص رأيى فى أمرين :

الأول : المناخ النفسى للشعب . . . لقد كان الشعب الذى طحنه الغلاء متهيئاً بالأمل فى موازنة الميزانية . . . فلما لم يحدث تقارب بين الأملين حدثت فجوة بين الطرفين ، وانقسام كانقسام الذرة الذى يسبب الانفجار .

والآخر: مفاجأة الجماهير بالأسعار الجديدة قبل عرضها على مجلس الشعب ، حيث كانت المناقشة فيها كفيلة بأن تخفف من صدمة المفاجأة ، وأن توضح المبررات التى أرغمت المسئولين والاقتصاديين على عرض مثل هذه الميزانية ، التى يفهمها الاقتصادى ، ولا يفهمها

الجائع . . . ويظهر أن المسئولين أرادوا بهذه السرعة الخاطفة مباغتة التجار الجشعين ، فكان أن باغتوا الجماهير الآمنة .

وبعد . . . فلابد أن نخرج من هذا الذى حدث بدرس مفيد . . . والدرس هو أن نوقن بأن شعبنا المطحون لم يعد يحتمل أكثر مما احتمل . . . ويجب أن نعلنها بصراحة حاسمة . . . إن أى اشتعال فى بلادنا سيجعل الجالسين على آبار الذهب يجلسون على آبار اللهب . . . كما أن أى اشتعال فى مصر ، وهى قلب منطقة الشرق الأوسط – سيهدّد العالم كله بأشد الأخطار . . . وعلى ذلك فإنى أقترح أن تقسم ميزانية الدفاع عندنا ، المقدّرة فى الميزانية بألف مليون جنيه ، على العالم العربى الغنى ، بحيث نخصص نحن لها فى ميزانيتنا مائتى مليون جنيه فقط ، ويخصص مثلها فى ميزانية كل بلد من البلاد العربية الغنية ، لا على سبيل المعونة ، بل على أساس الدفاع عن سلامتها هى بسلام المنطقة ، وإبعاد شرارة الانفجار عن بترولها . . . وإلا فليكن لنا سياسة أخرى تدرأ عنا وعن المنطقة ما يتهددها من خطر . . .

على أن روح شعبنا المصرى وطبيعته الطيبة يأبى دائماً العدوان ، وينفر من التخريب ، لأن تاريخ هذا الشعب العريق تاريخ بناء وعمار . . . وإننا نهيب به أن يعبر عن رأيه بالروح الطيبة البناءة التى جبل عليها من قديم .

طعام الروح

منطقة الإيمان :

حينما كنت وكيلاً للنائب العام كنت أرى عجباً فى قاعات المحاكم وجلسات التحقيق ، وكنت أفكر كثيراً فى أمر ذلك الشرير الذى طالعت صحيفة حياته ، فإذا آثام ودماء تسيل منها ، ومع ذلك يقف أمامى متطلعاً إلى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذباً ! . . .

هذا الآدمى قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شىء ، لكن بقيت — برغم هذا — فى نفسه منطقة عذراء ، لم يتطرق إليها الفساد ، إنها منطقة العقيدة ! . . . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والغريزة ؟ . . .

كذلك كان يدهشنى أمر صديق من خيرة القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ، ومع ذلك كان عقله حرًّا من كل قيد . . .

ما يدور بيننا حديث فى الخالق والخليقة حتى يذهب هو فى التدليل والمنطق كل مذهب ، إلى أن يقع فى الإلحاد وإنكار الجنة والنار ! . . . ويؤذّن المؤذّن بالصلاة ، فإذا القاضى يسرع مخلصاً إلى ذلك الدين الذى

قال فيه منذ لحظة قولاً عظيماً ! . . . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟ . .

إذا قلنا مع القائلين : إن العقل والروح والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى— فإن هذا القول يؤدى حتماً إلى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا إلى الأشياء ، ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات — تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ، فما يصدق عند العقل قد لا يصدق عند الروح ، بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى ! . . . يقابل ذلك فى المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس ، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية ، وما يعتبر موجوداً فى منطقة العين لا يعتبر موجوداً فى منطقة الأذن . . . فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة ، ولن تعرف مطلقاً ما الحجر وما شكله ، لأن عالمها — وهو عالم الأصوات — لا يخطر له على بال أن فى الوجود عالماً يسمى عالم المرئيات ! . . .

فالعقل لا يدرى إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه ، والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة ، وليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التى يستطيع العقل أن يراها من زاويته ، فإذا كانت العقيدة مرجعها

الروح – فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذى يستطيع أن يراه ، ويظل الشطر الذى فى دائرة الروح محجوباً عنه ! . . .

فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لاشك فيه عند الروح ، أما العقل فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق فإنه قد يرتاب فى صحة تلك الصفات المنسوبة إليه ، وقد يراها — فى منطقه — صفات آدمية ، أسبغها البشر على خالقهم ، إجلالاً له ، لأنهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التى هى فى عرفهم مرادف الإكبار والتقدير .

أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ . . . هل تستطيع الكبد فى جسم الإنسان مثلاً أن تحيط إدراكاً بحقيقة شكل الإنسان الخارجى ، وهى جزء منه داخل فيه ؟ . . . إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التى تمر بها كل يوم ، فتحولها إلى إفرازات دون أن تدرى من أين جاءت ، وإلى أين تذهب ؟ العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها ، دون أن يدرى من أين جاءت ، ولا إلى أين تذهب ؟ . . . فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التى تمر بالحواس ، ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل ، كمن يطلب إلى الكبد مضغ الطعام ، فالحقيقة العقلية أو العلمية شىء ، والحقيقة الإحساسية أو الدينية شىء آخر !

إن رجال الدين يقعون دائماً فى الخطأ ، إذ يبسمون بسمة الظفر ، كلما

قال العلم قولاً يتفق مع الدين ، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين . وما أحراهم فى كلتا الحالين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين ! وأن يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم فى كلتا الحالين كاذب عندهم وإن صدق ، وأن لا شأن للعلم بهم وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء ، دون أن يسمع الروح طرقة واحدة من طرقات معوله ، وأن أولئك الملحدين الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك فى جوهره ووجوده — لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات الروح الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الأسمى ، الذى بيده نفوسهم ! . . .

إن عقولهم كانت ترغى وتزبد بالكلام المعقول والمنقول ، وقلوبهم فى هذا الصخب ، لا تشعر ولا تدرى شيئاً عن المعركة الحامية القائمة فى تلك الرءوس ! . . . فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث . . . على أن اجتهاد المجتهدين فى هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الإجتماعى المبنى على الأخلاق ، وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة ! . . .

وهنا يتساءل النـاس دائماً : ما الدين ؟ . . . أشىء مفيد للبشر فى أمر حياتهم ومعاشهم ، أم طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى

المجهول الأعظم ؟ . . .

الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين : فالدين — باعتباره قانوناً اجتماعياً ينظم الغرائز ، ويحفظ التوازن بين الخير والشر — أمر متعلق بذات الإنسان ، متصل إذن بعقله وعلمه . . . على أن عنصر « الأخلاق » فى الأديان ليس كل جوهرها ، فإن بعض البلاد قد استطاعت أن تجد فى « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » ، إنما قوة الدين وحقيقته فى الإيمان « بالذات الأزلية »

هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنسانى ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الإحاطة والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود ، فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل ! . . .

ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر ! . . .

إنى لأسترعى نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء ، كلما قام باحث يتكلم فى الدين عن طريق العقل ، فإن الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة ، مهادها المعاهد والجامعات ، ولابد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق ، كما أنه لابد لحياة ملكة الروح من الشعور الحار العميق ، فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاءون ، ويثرثرون كما يريدون . . . وكل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى الروح الذى لا

يفتر لحظة عن التسبيح — رغماً عنهم — بالعقيدة ، التى ركبت عليها حياته النابضة ! . . .

قل الروح من أمر ربى :

جاء فى أخبار السيرة النبوية . أن « النضر » و « عقبة » أقبلا على رءوس « قريش » فى حى من أحياء « مكة » صائحين :

- يا معشر قريش ! . . . قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين « محمد » . فقد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عنْ شىء أمرونا به . فإن أخبركم عنه فهو نبى . وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فَرَوْا فيه رأيكم ! . . .

فلما جاء « محمد » ، تقدّم إليه « النضر » سائلاً : يا محمد ! . . أخبرنا عن الروح : ما هى ؟

ففكر النبى لحظة ، ثم قال : أخبركم بما سألتم عنه غداً . .

وتركهم وانصرف مطرقاً ، وسار فى سبيله مفكراً . وجاء الغد ومضى ، وتعاقبت الأيام والنبى ساجد عند غار حراء ، يتأمل ويفكر على غير جدوى ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا « محمد » غداً . واليوم خمس عشرة ليلة . قد أصبحنا منها ولا يخبرنا بشىء ! . . . واشتد البلاء على النبى ، فصاح مستغيثاً بربه : أى رب ! . . . إليك أشكو

بلائى . . . أى رب ! . . . ابعث لى وحيك ! . . . لقد سألونى عن الروح ولا أعلم بِمَ أجيب ؟ . . أى رب ! . . . أنسيتنى ؟ اللهم إنى لفى بلاء . . . اللهم إنى لفى بلاء !

وعند ذلك ، هبط « جبريل » بالآيات :

« وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك . وما كان ربك نسيًّا » . . . [1]

« ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدًا ، إلا أن يشاء الله . واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً » . . . [2] « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أتيتم من العلم إلا قليلا » [3] . .

إنى أجد دائماً فى هذا الحادث سمة من سمات العظمة فى النبى ، فهو قد فكر فى المسألة تفكيراً صادقاً خلال تلك الأيام الطويلة ، وقلبها على وجوهها ، ولم يهتد فيها بنفسه إلى جواب ، فهو لم يكن النبى الذى يبيح لنفسه الكذب على الناس ، فيخترع لهم جواباً بارعاً يسيراً يجوز على عقولهم الساذجة فى تلك الأزمان ، ولكنه أخذ الأمر مأخذ الجد ، وحاول فى الغار حل المسألة ، فلما هاله إعجازها استنجد ربه . فسمع منه ذلك القول الحكيم !

---

(١) مريم ٪ ٦٤ . (٢) الكهف ٪ ٢٣ و ٢٤ . (٣) الإسراء ٪ ٨٥ .

على أن موضع الدهشة عندى ، هو أن « محمداً » فى عصره وبيئته قد رأى ببصيرته المسألة فى إعجازها ، بنفس العين التى يراها بها علماء العصر الحديث ! . . . إنى لم أدهش « لجوته » يوم قال عن الروح قولا مماثلاً فى قصته « فوست » ! . . .

فجوته قد مارس علوم النبات والتاريخ الطبيعى ، ودرس من قوانينها ما وضعه أمام هذا الإعجاز وجهاً لوجه . . . إن مسألة الروح لا يمكن أن تبدو أمرًا معجزًا للطاقة البشرية حقًّا إلا أمام رجل علم غاص بكل ما أُعْطِى الإنسانُ من ملكات مفكرة فى أعماق الأبحاث النظرية والعملية معاً . . . حتى رجل العلم المغلق فى أبحاثه ، المخدوع بالنتائج الأولى البراقة لاكتشافه – قلما يبصر بعد المرمى ، أو يفطن إلى استحالة المطلب ، حتى يخطو فى تأملاته العليا خطوات . . .

فلقد حبس نفر من العلماء أنفسهم فى معاملهم منذ أكثر من أربعين عاماً ، واضعين نصب أعينهم هذه المسألة : « أفى مقدور العلم يوماً أن يخلق — صناعيًّا — مادة لها كل خصائص المادة الحية ، أى القدرة على النمو والتمثيل ؟ . . . »

لقد جرأهم على هذا المطمع اعتقادهم أن « الحياة » — فى جوهرها — ليست سوى تفاعل القوى الكيميائية الطبيعية ، فهى إذن قابلة أن تصنع فى المعامل صنعاً . . . ولو أنهم ما اجترءوا على أن يتصوروا

إمكان الوصول دفعة واحدة إلى صنع « خلية » فالخلية فى نظرهم جهاز قد بلغ فى تخصصه ودقته أسمى المراتب ، وما هى إلا نتيجة تطور استلزم الملايين من الأعوام !. . . ومع ذلك فقد انكب العلماء يبحثون . . . فما استطاع أحد منهم سوى « رافاييل ديبوا » و « بتلربيرك » و « وهيريرا » المكسيكى ، و « ستيلفان لبدوك » ، أن يأتوا إلا بكائنات منحطة فيها شبهة حياة استنبطوها من الأملاح ونظائرها ، واتضح لهم بعدئذ أنها جميعها لا تدخل نطاق الكائنات الحية بمعناها الحقيقى !

وعلى الرغم من ذلك يقول لنا البيولوجى « جان روستان » هذا القول المفعم بالتفاؤل :

« إذا توصل العلم يوماً إلى خلق الحياة ، فإن هذا سيتم حتماً بوسائل أخرى ، وبالرجوع إلى طرائف الكيمياء العضوية التى لا تقهر ، وإن النجاح الذى بلغته حتى الآن ، فى هذا المجال ، ما عاد محل جدال ، فهى اليوم قادرة على أن تخلق — صناعيًّا — عدداً كبيراً من مواد النشاط الحيوى ، مثل القلويات حتى الهرمونات . . . إلخ » .

أما علماء الطبيعة « الفيزيقا » فمنهم من يتجه وجهة أخرى ، ويضع المسألة على أساس آخر ، مثل « شرودنجر » الذى يبحث فى أصول الحياة ، وهل هى تقوم على أساس القوانين الفيزيقية دون أن يتفاءل أو يتشاءم ؟ . . .

أما أنا الذى ليس بعالم ، ويحاول جاهداً أن يتابع العلماء فى أبحاثهم . ويلقى العنت الشديد فى مطالعة آثارهم ، ويتحامل متجلداً فى تفهم كتبهم – فإنى أتساءل متشائماً :

لنسلم . جدلاً – أن هؤلاء العلماء قد نجحوا فى خلق خلية حية . فما قيمة هذه الحياة الظاهرية إذا لم تكن منطوية على تلك الخصال الكامنة العاقلة التى تميز بعد نموها شخصية النوع ، حيواناً كان أو إنساناً ؟ . . . تلك هى الروح ! . . . إنها ليست مجرد حياة بيولجية عمياء صماء . تنمو داخل معمل نمواً آلياً – إنما المقصود بالروح ذلك الشىء الخفى الزائد على مجرد الحياة البيولوجية ! . . . فهل فى مقدور العلم أن يخلق لنا يوماً خلية نملة مثلاً ، فيها روح النملة . بما فطرت عليه من سليقة الادخار والكدح والنظام ؟ . . .

ما أظن العلم يستطيع أن يخلق ذلك . ولا أقل من ذلك . . .

ويبدو لى أن العلم قد عرف أخيراً حدوده . وفطن إلى قصوره . وآمن بوجود شئ خلف تحليلاته ومركباته . . . شىء خفى لا يسميه الروح . . . ولكنه هو فى حقيقة الأمر ذلك الروح الذى أشار إليه الدين ! . . .

ولنصغ إلى العلامة « ا . م . جود » ، وهو يتحدث عن التحليل العلمى للإنسان قال : « لو أن علماء الطبيعة ، والكيمياء ، ووظائف الأعضاء ، والتحليل النفسى ، والاقتصاد ، والإحصاء ، وعلم الأحياء

إلخ . . . اجتمعوا ، ليقرروا الحقيقة عن الإنسان بعد الفحص الدقيق والتحليل العميق ، كل فى دائرة اختصاصه – ما استطاعوا أن يخرجوا بحقيقة الإنسان ! . . . لأن كل هذه التفاصيل المتفرقة عن الإنسان لو جمعت ما كونت الإنسان ، فالإنسان ليس هو مجموعة الدقائق التى يتكون منها تركيبه المادى والحيوى والنفسانى ، إنه أكثر من هذه المجموعة . . . إنه شخصية ! . . . هذه الشخصية شىء يفلت دائماً من غربال العلم ووسائله ! . . . هى شىء لا تحسه إلا إذا كنت لهذا الإنسان صديقاً ، والصداقة والحب من الأشياء التى لا يمكن أن يحسها العلم » .

ويمضى « جود » بعدئذ يحدثنا عن نتائج التحليل العلمى لنكتة فكاهية ، بلهجة لا تخلو من السخرية ! فيقول لنا : إن السير « أرثرأدنجتون » حاول أن يبحث فى طبيعة « النكتة » ، وقد رأى أنها قابلة للتحليل ، شأنها فى ذلك شأن أى مركب كيمائى ، فشرح جوفها وفكّ أجزاءها ، وقرر ما يجب أن يكون عليه النموذج الكامل لنكتة فكاهية ! . . . وكان المنطق يقضى بعدئذ أن نضحك للنكتة ، ولكنا لم نضحك ! . . . شىء فيها قد خر عند التحليل ، ولو حاولنا عندئذ أن نضم أجزاء نموذجية لنكتة مثالية حللها العلماء وقرروها . ما ظفرنا مع ذلك بالضحك ! . . .

والضحك الذى ينسبه « جود » إلى النكتة ، أسميه أنا الروح ! . .

على أن العلم قد بدأ يعترف صراحة بأن الدين خير طريق يوصل إلى هذه الغاية ! . .

قال « شرودنجر » فى كتابه « ما الحياة ؟ » : « إن بصيرتنا الدينية لها من القوة والمتانة والضمان ما لبصيرتنا العلمية » .

وقال أينشتين : « بصيرتنا الدينية هى المنبع وهى الموجه لبصيرتنا العلمية » .

هذا الاعتراف ولا شك ، كسب للدين . فما كان أحد فيما مضى — أى منذ قرن من الزمان — يتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول ! . . .

ذلك كان حقاً مسلك الفلاسفة والعلماء فى الإسلام ، لكن العلم لم يقف فى وجه الدين تلك الوقفة المسرفة فى التحدى والغرور إلا فى القرن التاسع عشر . ومن يدرى ؟ . . . ربما يتحتم علينا فى الغد أن نتابع سير العلم لتثبت أقدامنا فى الدين ؟ فما من شىء يرينا دائماً قدرة الله إلا عجزنا البشرى ! . .

جوهر الدين

كان « عمر بن الخطاب » شديداً فى مراعاة أحكام الله ، حريصاً على إقرار الأمن والأمانة بين الناس ، فبينما هو يسير يوماً فى إحدى

الأسواق إذ به يرى رجلاً يلتقط من الأرض لوزة . ويرفعها فى يده . ويجرى بها فى الطريق صائحاً : من ضاعت له لوزة ؟ !

فما كان من عمر إلا أن انتهره قائلاً : كُلْها يا صاحبَ الورَعِ الكاذب ! . . .

فى الناس أيضاً من يلتقط لفظة فى كلام كاتب . فيرفعها منعزلة عن نواياه . مستقلة عن مراميه . ليندب ويولول صائحاً : « ضاع الدين ! . . . ضاع الدين ! . . . مثل هذا المتظاهر بالورع لا يفهم من الدين إلا ألفاظاً . ولا يدرك بأفقه المحدود أن الدين لا يخشى عليه من لفظة ، كما أن الأمانة لا يخشى عليها من لوزة ! . . . وأن الكتاب والشعراء فى كل العصور ينتفعون بكل ما فى الكتب القديمة من صور . دون أن يرتاب فى عقائدهم القارئ الحصيف .

ومن ذا الذى يستطيع أن يرمى بالوثنية شاعراً ، يناجى آلهة الشعر . أو يرى فى هتافه بإله الحرب أو إله البحر شركاً بالله الواحد الأحد الذى لا شريك له . ؟ . . . وإنما هى صور من الآداب القديمة يستعيرها الشعراء والكتاب فى أساليبهم . دون أن يخطر فى بالهم أن من الناس من يضيق عقله . فيخلط بين الصورة الشعرية والعقيدة الدينية ! . . .

ولكنى مع ذلك أحيى كل من يفهم جوهر الدين . وأحث الناس

على أن يفخروا بالدين . فإنى دائماً أومن أن الدين هو الذى رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جميعاً .

فالذكاء ليس بالمزية التى اختص بها الإنسان وحده . والنظام الإدارى المحكم . أو الاقتصادى الكامل ليس وقفاً على المجتمع البشرى . فإن مجتمع النحل لأدق منا نظاماً فى الإدارة . وإن مجتمع النمل لأتم منّا إحكاماً فى الاقتصاد ! . . . ولكن الذى يميزنا – نحن معاشر البشر – هو « الإيمان » . . . ما من مجتمع غير مجتمعنا البشرى اهتدى إلى ذلك الإيمان الدينى ، لأن حياة الروح لم يلج بعدُ بابها غير الإنسان ! . . .

إذا أهدرت دينك أيها الإنسان فاعلم أنك قد أهدرت آدميتك . وإذا خلعت رداءك الدينى فقد خلعت رداءك البشرى . وانقلبت دابة تسعى إلى رزقها فى الأرض . ولا تقوى على التطلع إلى السماء . . .

الدين هو الذى يرفع بصرك إلى أعلى أيها الإنسان . . . إلى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك ! . . . وإذا استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك ! . . . وإذا أستطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك ـ فأنت أرقى من الحيوان ! . . . وإذا ارتفعت إلى حيث تدرك وجود « الله » فأنت سيد الكائنات !

كل شيء قد يعرفه الحيوان إلا « الدين » . . . لو عرفت جماعة من الحيوان يوماً معنى الدين لأصبحت فى الحال بشراً ساجدين ! . . . ما من شيء نفخر به نحن الآدميين إلا أننا نسجد من أجل فكرة أعلى ! . . . ونتحمس من أجل معنى مقدس ! . . . وتعرف قلوبنا ما « الإيمان » ؟ !

نجم « أحمد »

وقف اليهودى على أحد آطام « يثرب » ناظراً إلى السماء ، يعلن إلى بنى قومه ميلاد النبى فى صيحة مدوية : طلع الليلة نجم « أحمد » ! . . .

عجباً من العجب ! . . . أحقاً لم ير ذلك اليهودى نجم « أحمد » قبل تلك الليلة ؟ . . . يخيل إلىّ أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان . . . إن نجم « أحمد » طالع فى كل لحظة يشع نوراً من بداية الكون ، لو أن للكون بداية ، إلى نهاية الزمن ، لو أن للزمن نهاية ! . . .

نجم « أحمد » هو الحق ، والحق لا يبدأ ولا ينتهى . . . ولا يظهر ولا يختفى ! إنه موجود ! . . . .

إذن ما الإسلام ؟ . . . وكيف ظهر الإسلام بظهور « محمد » ،

والمسيحية بظهور « المسيح » ، واليهودية بظهور « موسى » ؟ . . . هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق . . . بين المعنى والأسلوب . . . ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته . . . كذلك المسيحية ، وكذلك اليهودية ، وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتّحد فى الجوهر وتختلف فى المظهر . . . وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب ، وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع مانع ، سهل ممتع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . . . فالمفاضلة لا تكون فى الجوهر ـ لأنه واحد أحد ، إنما المفاضلة فى الأثواب ! . . .

وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب ، وهى كلها من صنع الخالق المعصوم الذى لا ينبغى أن يخطئ ، ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه . . . . أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله ، أما الأسلوب الذى يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟ . . .

قبل الإجابة عن هذا السؤال : يجب النظر فى قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب عليه النبى أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟ . . . هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو إليه ؟ . . . وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبى دخل فى

اتخاذ « القالب » الذى أفرغ فيه « موضوع » النبوة ؟ . . .

إن أجيب عن كل هذا بالإيجاب فإن التبعة فى « أسلوب » الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء . والنبى إذن مسئول عن الطريق الذى اتبعه للإبانة عن « الحق » مسئولية ملقاة على « شخصيته » التى صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ، وعلى قدر الشخصية ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى ! . . .

إن صح هذا الكلام فإنى أستطيع القول بأن النبى أوالرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته ، بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته ، كذلك فعل « النبى العربى » ، وكذلك فعل « المسيح » و « موسى » ، وكذلك كل « نبى » لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . . . وهى ملكات تختلف باختلاف الأشخاص ! . . . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التى جرت عليها الأديان فى عرض جوهر الحق على الناس !

ولعل « محمداً » هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس فى كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتأ يذكّرهم أنه بشر خاضع للقوانين التى يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص – الذى قصر على الرسل – إلا إذ يشاء الله ، وأنه فى كثير من حياته الخاصة أو العامة – حيث لا وحى يهديه السبيل – يتصرف كما

يتصرف البشر . . . هكذا فعل فى معارك « بدر » و « أحد » و « الخندق » . إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأى من رجاله ! . . . وهكذا فعل . إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل إنه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التى ركبها الخالق فى البشر . . . والنبى الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً . وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية ! . . .

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان ، فهو دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة ، كل شىء فيه صادق خالص صاف ، ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر ، من حيث تركيبهم المادى والمعنوى ، ذلك أن أسلوب « محمد » فى إدراك « الحق » كان أسلوباً مستقيماً ، فهو قد أدرك أن معنى الحق إنما هو « السبب » الذى يصدر عنه » الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو النظام ، إذ لا يتصور أن تكون « الفوضى » من عناصر الخليقة . . . بل إن الفوضى إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ، بل إن كلمة « الفوضى » لا محل لها إلا فى أدمغة البشر يعبّرون بها عن كل ما يحدث شيئاً من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . . . .

أما الكون غير المتناهى فلا يعرف غير النظام الذى فرض على الإنسان

والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ . . . إن مخالفة النظام الطبيعى للإنسان والأشياء مخالفة لله ، وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه !

كل هذا فهمه « محمد » ، ورعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الإسلام فى الإفصاح عن « الحق » واضحاً جلياً ، لا يأمر بالرهبنة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله ، لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه ! . . .

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأ لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية ، والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية .

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة — إن الإسلام بلا مراء هو دين الصحه فى كل شىء ، فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم ، وصحة العقل ، وصحة العقيدة ! . . .

ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً — إن مستقبله ولا ريب يسير بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى

مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدماً ، ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء ! . . .

وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول ، فإن الدين « المثالى » هو الدين البسيط ، وهل أبسط من الإسلام شريعة ، وهى لا تعرف « رجال دين » ؟ ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ، ومن « الدين » مهنة تدر الرزق وتعطى متاع « الدنيا » ؟ . . . إن أولئك الذين يجعلون « الدين » سلماً « للدنيا » — لا « الدنيا » سلماً « للدين » — قد طردهم الإسلام بعيداً عن حظيرته ، وجعل الدين سمحاً باسماً باسطاً ذراعية لكل الناس ، لا احتراف فيه ولا احتكار ! . . .

نعم ، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوى الصافى من المبادئ البسيطة المستقيمة ، التى لا خداع فيها ولا تمويه ، ولا تناقض ولا تشويه .

فى الدين والأخلاق

* إن مخالفة النظام الطبيعى للإنسان والأشياء مخالفة لله ، وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه .

* ما يأمر به الله هو أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية أو مناعة اكتسابية .

* ما الرسول فى الحقيقة غير الرسالة . . . والرسالة لا تموت . .

* إن روح المسيحية هى المحبة والمثل الأعلى ، وروح الإسلام الإيمان والنظام .

* إن المعجزة الحقيقية التى جاء بها أنبياء الشرق هى أنهم قدموا للناس عالماً آخر عامراً بسكان من ملائكة أولى أجنحة جميلة بيضاء ، زاخراً بجنات فيها أنهار من التبر وأشجار من الزمرد ، راعداً بنيران تتأجج بلهب ، زرقاء كألسنة الأبالسة الهائمة كالخفافيش . . . فى هذا العالم استطاعت البشرية أن تعيش حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع .

* السماء ، الجنة ، الجحيم . . . جَرِّدْ عالمنا الأرضى من هذه الكلمات الثلاث ، فتنهار فى الحال أروع آثارنا الفنية .

* كل ما استطعنا أن نخلق من جمال إنما صنع تحت نور شعاع من أشعة السماء .

* ما أقوى الإنسان الذى يعتقد حقاً أن له صديقاً ونصيراً من أهل السماء !

* إن الإخلاص للدين والفن يستوجب التجرد .

* ما أسعد أولئك المؤمنين الذين يعتقدون أن الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة ! ما أسعد أولئك الذين يرون الحياة الإنسانية جديرة أن تشغل الكون دائماً هكذا طول الخلود !

* عرفنا الله قبل أن نعرف البشر ، وعرفنا الصفاء قبل أن نعرف الشر .

* لا يخشى على الحكمة من شيء غير القدرة .

* ربما كانت الحكمة الحقيقية هي فى أن يعرف الإنسان كيف يحكم قدرته ؟

* كلما أسرفنا فى الانخداع بملكاتنا جعلتنا السماء موضعاً للسخرية .

* اليوم الذى يمتلئ فيه الحكيم شعوراً بحكمته هو أقرب الأيام إلى ساعة انكشاف الرداء عن حمقه المضحك .

* يجب أن تكون فينا زهرة لم ترو ، وجوع لم يشبع ، ورغبة لم تنل ، وصيحة لم تسمع ، لنكون جديرين بفهم القلب الإنسانى .

* إن أعظم معجزة فى الكون للخالق الأعظم جل شأنه إنما هى «شخصية الإنسان» . . . ملايين الملايين من البشر تتوالد وتتعاقب ، فلا تطابق شخصية منها شخصية أخرى تمام الانطباق ، فى الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع . . . كل شخص يظهر فى الأرض جديد جدة تنبثق معه وتختفى معه ، إلى أبد الآبدين .

* كل معجزات الأرض قليل إلى جانب المعجزة العظمى وهى : الديانة التى يفجرها الله من نوره ، فيتبعها أفواج البشر مبهورين ، شاعرين أنها سكبت فى شرايينهم ، ومزجت بدمائهم إلى يوم الدين .

* ما من شيء يرينا دائماً قدرة الله إلا عجزنا البشرى .

* إن إرادة الله لها من المرامى ما لا يتسع له ذهن إنسان . . . فلن يكون إذن لمخلوق سلطان كامل على الغيب ، ولا قدرة كاملة على التنبؤ .

* السماء لا تهمس بكلامها لكل الآذان . . . إنها أحفظ لسرها مما تظن . . . ولغتها لا يفهمها كل إنسان . . . لغتنا نحن البشر هى القول ، أما لغة الله فهى الفعل .

* تتفتح بصائرنا أحياناً من خلال الأخطاء ، كما تتفتح الأزهار النابتة فى الأوحال .

* لو أنك أردت أن تدنو من الله فأشعلت له فى نفسك مسرجة ، لأضاءت لك فى أحلك لياليك . . . ولكنك آثرت أن توقد فى عقلك مصابيح . . . انطفأت كلها عند عصفة من عصف الريح .

* إن الغاية النبيلة ليست من الضعة حتى تقبل أن يوصل إليها بطريق غير نبيل . إن الطريق إلى الشرف هو الشرف نفسه ، والخير هو نفسه الطريقة والغاية ، لأنه شعاع من أشعة الله . . . والله تعالى غاية لابد أن يكون طريقها نوراً وخيراً .

* الإيمان لا يعرف الزمن . إنه انبثاق من أعماق القلب فى لحظة فيكشف ظلمات الآزال والآباد .

* إن الخليقة الإلهية لا يمكن أن يكون فيها حشو أو لغو . هى هندسة دقيقة كاملة لا فضول فيها .

* إذا كنتُ أرتدى العفة طمعاً فى تصفيق الناس فأنا دجال . . . وإذا كنتُ أطرحها عند جحود الناس، فأنا مزعزع العقيدة .

* ليس من السهل أن نعرف حقيقة الأشياء والأشخاص . . . أفى تلك الضآلة التى نراها عليها من العلو هى ، أم فى تلك الضخامة التى نراها عليها من السفل ؟

* إنى لا أفرق بين القدر والنظام ، لأن تدُبير الله هو تنظيمه ، وما نسميه قدره هو فى الحقيقة قانونه .

* إن اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة ، وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جماعة يستمدون هيبة وقوة وجلالاً من مجرد قيم معنوية عارية عن المال والجاه — لهو اليوم الذى يمكن فيه إقناع الناس بسلطان الروح .

* لا شىء يقتل البائع الطامع غير المشترى القانع !

* الإنسان هو المخلوق الوحيد بين جميع الكائنات الذى نيط به ربط الأرض بالسماء .

* إن خطوط العقول والقلوب مختلفة فى الناس اختلاف الخطوط فى بصمات الأصابع .

* هناك حياة تشبه الرسم الكاريكاتورى ، فيها من عدم التناسق ما يكشف لنا غرابتها وعجائب القدر ، كما أن هناك حياة متناسقة مرتبة لا تثير عجباً ولا تخفى معنى .

* من الناس من يعيشون حاضرهم فى الأحلام ، فإذا جاء الغد صاروا حقائق ، ومن الناس من يعيشون حاضرهم فى الحقائق فإذا جاء الغد صاروا أشباحاً !

* إن تركيب الإنسان يقابله ترتيب الأديان ، فاليهودية مرحلة الصبا يمثلها موسى بالبدن ، والمسيحية مرحلة الشباب يمثلها عيسى بالروح ، والإسلام مرحلة الرجولة يمثلها محمد بالعقل . ومن الثلاثة : البدن ، والروح ، والعقل ، يتكون الإنسان .

فى الإنسانية والمثل العليا :

* لا خير فى فكرة لم يتجرد لها صاحبها ، ولم يجعلها رداءه وكفنه ، بها يعيش وفيها يموت .

* النصر الحقيقى هو لذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية ولو خطوة ، ويسعدها ولو لحظة . . إن كلمة نبى أو ترنيمة شاعر أو تغريدة

موسيقى – لأنفع للبشر من صيحات الظفر وطبول النصر فى أكبر معركة حربية .

* بغير المثل الأعلى تحيون كالديدان فى الحمأة يأكل بعضكم بعضاً .

* الروح لا العلم مصدر الخلود .

* المسيح ومحمد كل منهما كان يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ، ليبذر فيهما المثل الأعلى الإنسانى . . فالخلود هو لمن يعمل لخير الإنسانية كافة ، ولرفعة الجنس البشرى كله .

* إنى لا أطيق أحداً يحقر الأفكار والكلمات ، إن الكلمات هى التى شادت العالم . . الكلمات الصادقة ، والأفكار العالية ، والمبادئ العظيمة ، هى وحدها التى قادت الإنسان فى كل أطوار وجوده ، وبنت الأمم والشعوب فى كل مراحل تاريخها . . ما من حركة وطنية أو قومية أو إنسانية قامت أول أمرها على شىء غير المبادئ والكلمات . .

* الحرية هى الهواء الضرورى لسعة الصدر والعقل . . الحرية هى الدواء الحقيقى للأمة المريضة .

* عندما يظهر الذهب ببريقه ورنينه فاعلم أن المبادئ فى خطر . . لأن هذا البريق سوف يذيب المبادئ بأشعته الساحرة . . وهذا الرنين سوف يضم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع صوت المبادئ . . . هو عدو

المبادئ لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ . . . مبدأ خطر طاغ متأله يهزأ بكل المبادئ المتجردة السامية ، وعندما يتحكم يصبح هو وحده المقياس الفعلى لقيم الرجال .

* لولا شرف الجهاد لهدى الله الناس بغير أنبياء مجاهدين ؛ ولجعل الأنبياء ينجحون فى هداية الناس من أول كلمة بدون كفاح .

* ليس المهم للإنسان أن ينجح بل المهم أن يكدح .

* الرق لم يذهب من الوجود . . . لقد اتخذ شكلاً آخر يناسب هذا العصر . . . لكل عصر رقه وعبيده .

* إن الإنسانية لا تتغير ، إنما تتغير فيها الأثواب .

* إن الحضارات لا تختفى بل تنتقل .

* كل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات أنه يرتفع إلى غايات أعلى بأشياء معنوية لا تتصل مباشرة بطعامه وشرابه .

* إن نتاج الأذهان لا يقل عن نتاج الألبان ثروة للأمة ، ولكن الاقتصاد القومى فى الأمم المتأخرة لا يدخل فى حسابه غير الثروة المادية . .

* الإنسان الحى حقًّا هو ذلك الكائن الذى تيقظت فيه كل حاسة وملكة ، مادية وروحية ، وتكونت وتهذبت حتى استطاعت أن تتخير له خير ما فى الوجود من عناصر السعادة الروحية والمادية معاً .

* إن المعرفة البشرية لا تدخل إلينا من باب العقل وحده ، إنما تتسرب إلينا من كل مسام جلدنا وجسدنا وذهننا وروحنا .

* تحت شمس الفكر رأيت النور وعرفت الحب ولكننى احترقت .

* لا تنس أنهم خلقوا من طين الأرض . . ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء !

* الفاصل بين الإنسان والحيوان هو الخيال . . الحلم المثالى هو العالم العلوى الذى لا يدخله حيوان .

* إن عالم الواقع لا يكفى وحده لحياة البشر . إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية كاملة .

* إن الغرب يكتشف الأرض ، والشرق يكتشف السماء !

* إننا أهل الأرض لنشغل أحياناً بما نصادف من فوز أو متعة فنقع فى غشية من غرورنا ، ننسى معها أنفسنا ، وننسى السماء وأهلها ؛ عند ذلك تتركنا السماء فى حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة ، فلا نستيقظ ونرى ماصرنا إليه إلا يوم نحتاج إلى حرارة العزاء وعناية السماء .

* كلما همّت روح الإنسان بالتحليق نحو الأعالى كبّلتها أكاذيب الإنسان ، وأنزلتها إلى التراب . . كل شقاء الإنسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئاً عظيماً ذا قداسة بغير أن تلبسه أحياناً ثياباً مبتذلة مضحكة من حمقها وزيفها وغرورها .

* إن أوربا اليوم تعانى أزمة شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة مرت بها . ذلك أنها تنبهت إلى أن ما زعمته « روحاً » فى كيانها قد انكشف لها وظهرت من تحت ريش الطيور السماوية أنياب الخنازير البرية .

* إن كل وسائل العلم حتى الآن هى أعضاؤنا وعقولنا وحواسنا ، وهى ليس لها من الإحاطة والدقة ما يقتنص غير القليل من ظواهر الطبيعة والكون ، مهما عاونتها الآلات والعدسات . وما دامت تلك هى كل أدواتنا فلن ندرك من أسرار الكون إلا اليسير .

* إننا لا نستطيع أن نخرج من أنفسنا لنفهم ونرى شيئاً غير أنفسنا .

* لقد هِمْت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمى يرقّ وأن لنفسى أجنحة كأجنحة الفراش .

* إن تمسك الناس بالوهم الذى اعتادوه لأقوى من كل حقيقة .

* إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدّونها بل يحياها .

* إن الحقيقة عملة لا تجوز فى مملكة الأحلام .

* لقد هبط آدم الأرض فغمره نعيم وجحيم من نوع آخر ومادة أخرى لا يعرفها العالم العلوى .

* الحلم فنان حاذق يأتى أحياناً بالمعجزات فى رءوس النائمين .

* إن الموت لا يجل ويعظم حقًّا إلا فى نظر من يموت ، فى تلك اللحظة التى يشعر فيها المحتضر أنه مفارق هذه الدار التى عرفها وعرف

أهلها إلى مكان مجهول ، فراقاً لا رجعة بعده .

* من السهل أن نخرج من الحياة كلها . وليس من السهل أن نخرج من الإطار الذى أرغمتنا الظروف على اتخاذ مكاننا فيه والتحرك فى حدوده . .

* حب المعرفة هو شباب العقل . هو الشباب الأبدى ، هو السمو الإنسانى الذى سجدت له الملائكة إلا إبليس .

* أزمة الإنسان اليوم هى حربه ضد نفسه ، فهو ليس له قريع آخر غير نفسه ، لأنه لم يعد فى غروره يرى سوى حريته المطلقة . لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة التى تحرك وجوده وتلعب بمصيره ، وتستوجب نضاله ، وتتطلب تفكيره .

* الإنسان هو الإنسان . ولكنه فى كل مرة يولد ، إنما يولد جديداً . . لا يكرر بالضبط إنساناً غيره . . ولا يشابه بالضبط شخصاً سواه .

* لكل إنسان بين جنبيه بئر عميقة . . ولقد رأيت من الناس من يلقى فى بئره دلواً من ذهب ، فلا يجد الدلو فى القرار غير حصى مرصع وحجارة مرصوفة .

* لو استطاع إنسان أن يشمل بنظرته الأمس واليوم والغد ، وأن يتتبع حادثاً واحداً أو رجلاً بعينه فى مراحله عبر الزمن – لرأى العجب .

* إن ما نسميه الحظ ليس إلا وقوف نظرنا المحدود على وضع من الأوضاع فى وقت من الأوقات ،

* وإن فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية إن الإنسان الذى أعطى الحكمة ليس فى حقيقة الأمر إلا ذلك الذى أعطى العين التى ترى الأشياء فى جملتها لا فى جزء منها ، وفى تعاقبها لا فى وقوفها .

* من يحتل أرضك يحتل فكرك ، ومن يسلب بلدك يسلب روحك .

* شمس الغرب غاربة لا محالة .

* إن استطعت بالمال أن تشترى مظهر الحضارة فلن تستطيع أن تشترى الحضارة .

* الأبوة تحقق رسالتها عندما يوجد أبناء يتجاوزونها ويتفوقون عليها .

* روح الحضارة فى أمة يبزغ مشاعر وإحساسات ، قبل أن يظهر وسائل وماديات .

* الحلم لا يمكن أن يحتفظ بصفاته الخيالية إلا وقتاً قصيراً . . فإذا طال أمده انقلب إلى واقع .

* أيها الإنسان ، أين تهرب ؟ إن ما تفرّ منه تحمله فى دمك ! حينما

ذهبت وتوالدت خرجت من صلبك حضارة مضيئة مدمرة كالشهب . . هكذا خلقت ! . . خلقك الله حقًّا من تراب الأرض الطيبة . . ولكن مسّك بعدئذ إبليس ، فصرت شهاباً لا يهدأ حتى يبرق ثم يحرق نفسه ، وهو يهوى فى أجواز الزمان . .

* القدر يعرف ما هو صانع بنا فى نهاية الأمر ، ولكنه يترك لنا حرية الكلام والحركة التى تقتضيها دوافعنا الداخلية .

* المشهور شخص أضاع حرية الانغمار فى بحر الجماهير .

* إن الناس لا يمكن أن يتصوروا إلا ما كان على صورتهم .

* الأجيال تتماسك فى الأمم القوية كما تتماسك حلقات السلسلة الفقرية فى الأجسام الصحيحة .

* فى الشباب يثمر الخيال والشعور والعاطفة ، وفى الكهولة ينضج العقل والحكمة والتجاريب ، فلكلّ فصل من فصول العمر فاكهته .

* المطلوب لتكوين شخصية النشء ليس حرية العمل بل حرية التفكير .

* الويل لإنسان الغد ! ما قيمة الإنسان وقد جزدته الآلة من مقوماته ؟ هى التى تفكر له ، وتبصر له ، وتسمع له ، وتقرأ له ، وتحسب له . . قل إذن : إن الآلة ستصبح لها خصائص الإنسان ، وإن الإنسان ستصبح له روح الآلة ! . .

* واهاً لمن حكم عليه بالسير فى الظلام !

* إن الغضب علامة العجز.

* الطبيعة كلها ليست سوى سجّان صامت يضيق علينا الخناق .

* أود أن أنسى هذا اللحم ذا الدود ، وأنطلق . . . أنطلق إلى حيث لا حدود .

* ما أنا إلا ماء . هل لى وجود حقيقى خارج ما يحتوى جسدى من زمان ومكان ؟ حتى الحركة والتغير والانتقال إن هى إلا تغيير إناء بعد إناء . ومتى كان فى تغيير الإناء تحرير للماء ؟ . . .

* كل شىء فى الكون يدور . . . نسأل الطبيعة عن سرها لتجيبنا باللف والدوران !

* النهاية تتلوها البداية فى قانون الأبدية والدوران .

* إنى أضيق ذرعاً بهذا المكان ، بهذا الجثمان . الجثمان خلق المكان كما خلق الماء الإناء .

* ما أعجب تركيب الإنسان ! فينا القوة أحياناً إلى حد العظمة والتضحية ، وفينا الضعف أحياناً إلى حد الحقارة والأنانية .

* إن مجرد الحياة لا قيمة لها . إن الحياة المطلقة المجردة عن كل ماض ، وعن كل صلة ، وعن كل سبب – لهى أقل من العدم ، بل ليس هناك عدم ؛ ما العدم إلا حياة مطلقة .

* إن أية حياة منحة . وأثمن منحة تعطى مخلوقاً هى الحياة .

* الزمن يحملنا . . . كى يمحونا بعد ذلك . . . إلا من استحق الذكر فيبقى فى ذاكرته . . . أى التاريخ .

* إنى أومن ببشرية الإنسان ، وأرى عظمته فى أنه بشر . أى كائن له ضعفه ونقصه وعجزه وأخطاؤه ، ولكنه يوحى إليه من أعلى .

* إن كثيراً من الانقلابات التاريخية والمحن البشرية يرجع فى أغلب الأحيان إلى إرادة رأس كبير أو تمرد بصيرة عمياء .

* فى كل ذرة أو خلية ناموسها ، وإلى جانب هذا الناموس شراك يقع فيها الخارج عليه ، لترده إلى مكانه من النظام العام . . .

* إن الصدق مخيف للنفوس الضعيفة .

* آه . . . لو كان فى يدى التحرر من طبيعتى !

* لا يطفئ مصباح العقل غير عواصف النفس .

* صوت الحق لا يسمع أحياناً بالأذن ، ولا بالرأس . . . ولكن بالروح !

* ما أتعس هذا الإنسان . . . الذى جعل ينقب عن حقيقته فى الأعماق ، فما انبثق له غير نبع شقائه .

* إن الإنسان هو الإنسان . . . لابد له من أن يعمل ويريد ويسير بما تدفعه إليه ملكاته وخيلاؤه ، دون أن تتبين لبصيرته القاصرة إرادته من

إرادة الله .

* الإنسان يضع مبادئه فى نطاق زمنه المحدود ، ولكن الطبيعة تضع مبادئها فى نطاق زمنها غير المحدود ، وهنا سر الخلاف بين الطبيعة والإنسان .

* ما من رأى واحد يمكن أن يسود هذه الأرض .

* كل منا يخدع نفسه ، أو نفسه هى التى تخدعه . . . لأنه ما من إنسان هبط فى قاع نفسه ليرى ما فيها . . . النفس الإنسانية ! هذا البحر ذو الوجه الصافى الذى تختلط فى جوفه الرمال بالأعشاب ، والصخور بالأسماك ، واللآلىء بالعقارب !

* هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقدم عنها جواباً مقنعاً ، لأن طبيعتها تأبى التعليل المعقول . من ذلك مسائل العواطف والغرائز .

* ما أكثر الذين تسقط على رءوسهم السعادة وهم نائمون ، فإذا استيقظوا هربت . . .

* يكفى دائماً أن يوجد مجنون واحد بإخلاص ليستطيع أن يجن الآخرين بسهولة .

* كل إنسان يؤمن بما يرضى أنانيته . . . كل شىء صالح ، وكل شىء مصلح ، وكل شىء فيه صلاح وإصلاح ما دام فى مصلحتنا .

* هناك طراز من الجياع يقضون حياتهم كلها بين الموائد ،

ولا يملئون أبداً ما يشعرون به دائماً من فراغ .

يا للشباب الذين لا يبصرون إلا بالعاطفة . ويا للعاطفة التى لا تبصر أبعد من حاضرها :

* إن إثبات العقل لمن أشق الأمور . . . إذ كلما أمعنت فى إثبات عقلك ابتسم الناس رحمة بجنونك .

المنبع فى الدين :

يسألنى الكثيرون لماذا أخرجت أخيراً هذا المجلد الضخم لمختار التفسير الكبير للقرطبى الجامع لأحكام القرآن الكريم ؟ وإنى أقول بالإضافة إلى ما جاء فى مقدمة هذا الكتاب إن حاجتنا إلى معرفة أصول ديننا وتشريعه فى هذا الوقت توجب علينا الاتصال المباشر بالمنبع . وهذا المنبع هو القرآن الشريف ، وهو يحتاج إلى تفسير . والتفسير فى مجلدات ، تصل عند القرطبى إلى عشرين جزءاً . وهى على هذا النحو عسيرة التناول على أكثر الناس . حتى عند أغلب المتخصصين تؤخذ عند الحاجة على أنها كمرجع أكثر من أن تعتبر للقراءة المتصلة . ولذلك كان من الضرورى حصر هذه المجلدات العشرين فى مجلد واحد ضخم يجمع بين دفتيه « ما لا بد لكل متدين وقارئ للقرآن ، ولكل راغب فى الاتصال بأحكامه وبلاغته ، من معرفة منبعه وفهمه لكثرة استعماله وجريانه على

الألسن ، وخاصة في أيامنا هذه التي ظهرت فيها الرغبة على أشدها في الرجوع إلى مصادر الدين » . . . بل أيضاً في الوقت الذى كثر فيه الحديث عن الشريعة الإسلامية والرجوع إليها كمصدر للتشريع .

فمن منا إذن لا يريد أن يعرف من واقع المنبع الأصلي حقيقة ما جاء خاصًّا بالقصاص والقتل والسرقة والربا والخمر والزنى ورشوة الحاكم والإمامة والحكم والتجارة ، وفي الصلاة والزكاة والحج والعمرة ، والشك والإيمان والقدر والحذر ، والحكم لغير المسلمين ، وحق الفقراء والمساكين ، والتوبة والصدقة والزينة والمأكل والمشرب ، والفنون التشكيلية والنظر إلى الكون والتدوين للعلوم بالكتابة . وفي خلافة المرأة وفي تبرج النساء ، وفي المساواة في الرزق وفي أن أمرهم شورى ، وفي الزواج والطلاق ، وفي القلم والعقل والعلم والعلماء . . . إلخ ، ونحو ذلك كثير مما يدل على أن الدين قد تناول ما يجرى في حياتنا الإنسانية تناولاً شاملاً .

على أن أهم ما نجده في هذا المرجع للمنبع هو هذه المناقشات ومختلف التفسيرات لهذه الأحكام بين جلّة العلماء وأئمة المفسرين ، حيث تتجمع الآراء وتختلف وتتفق وتقترن ، وكأننا في مجلس من المجالس التشريعية التي تناقش فيها القوانين والأحكام على الملأ ، مما يطلع القارئ على كل جوانب القضية وعلى كثير الحجج ، كما يؤكد له أن كل قضية

من القضايا وكل حكم من الأحكام قد نوقش بحرية فى الرأى تثير العجب وسعة فى العلم وقوة فى الحجة تثير الإعجاب .

كل هذا مما جعلنى أقتنع بضرورة الرجوع إلى المنبع للخروج بحصيلة من الحقائق المباشرة عن الدين من منبعه دون تدخل أو وساطة من وصف أو تعليق . وهذا ما حرصت عليه كل الحرص بعدم تدخلى بحرف واحد فى هذا المختار لتفسير القرطبى لأحكام القرآن .

ولقد كنت من مبدأ الأمر أريد استخراج هذا المختار لنفسى رغبة منى فى الاستعانة به على الوصول إلى الاقتناع من واقع الأصول وحدها ، ولكنى وجدت من المنفعة العامة أن أشرك معى غيرى فى الانتفاع من هذا المورد الميسر. ولعلى بهذا أكون قد أجبت عن سؤال السائلين .

طعام العقل

رجل العلم ورجل الأدب :

من أحب المطالعات إلى نفسى كتب العالم الرياضى « هنرى بوانكاريه »[1] . عندى من مؤلفاته ثلاثة كتب : « العلم والطريقة » و « العلم والفرض » و « قيمة العلم » . قرأتها لأول مرة منذ عشر سنوات ، وأعود إليها من حين إلى حين . إنها تسحرنى كما تسحر الأطفال قصص « ألف ليلة وليلة » . فأنا الآن لا أقرأ كثيراً كتب الأدب ، ولكنى أحب أن أصغى إلى أولئك الذين يبحثون فى صمت عن الحقيقة ، هؤلاء الذين عندهم ما يقولون ، ولكنّهم يترفّعون عن الكلام ، لأن الحقيقة التى يحاولون أن يتَصيّدوا شبح خطاها خلف « المكرسكوبات » و « التلسكوبات » أرْوَعَ وأعظم من أن توضع فى ألفاظ وعبارات . على أن ما يعنينى من كلام هؤلاء العلماء ليس الأرقام والمعادلات أى الوسائل ، ولا يعنينى كذلك ما وصلوا إليه من « نتائج » ، ولكن الذى أقرأ من أجله

(١) كاتب فرنسى وعالم من علماء الرياضة توفى سنة ١٩١٢

هذه الكتب هو تلك الإشراقات الذهنية التى تلمع من خلال بحوثهم ، فتضىء جانباً من جوانب الفكر المهجورة .

ليس العلم فى ذاته هو الذى يهمّنى ، لكن هى « العقلية العلمية » فى مصادمتها ومواجهتها للأشياء . لا شىء يلذ لى مثل مجالسة « عالم » متسع الأفق ، وهذا النعت لا ألقيه جزافاً ، فإنّ من كبار رجال العلم من هم ضيّقو الأفق ، أى سجناء معادلاتهم وأرقامهم ، يصلون بها مع ذلك إلى نتائج باهرة فى صميم العلم ، ولكنهم قلّما ينظرون إلى العالم الخارجى ، وأعمالهم قلّما تعنى غير فئة صغيرة من زملائهم العلماء . . . إنما الطراز الذى أقصد — هو طراز رجل العلم المطبوع الذى يخرج بعد ذلك لينظر بعين العلم وعقلية العلم إلى الكون بمعناه الواسع . . . هى « فلسفة العلم » ما أريد ، لا العلم نفسه .

هنا بعد هذه القراءات يتضح لى أنا « رجل الأدب » كيف أن مخلوقاً آخر يسمى « رجل العلم » ، ينظر إلى الأشياء التى أنظر إليها ، ويفكر فى هذا الكون الذى أفكر فيه ، ولكن بعين أخرى وعقل آخر . ومن يدرى ؟ . . . لعل أكثر هؤلاء العلماء الذين ننعتهم باتساع الأفق هم أيضاً لا يلذّ لهم شىء مثل قراءة الآداب ، ومجالسة « رجال الأدب » ، وهو الواقع ، فما الأمر فى باطنه إلا شوقٌ وحبٌّ استطلاع بين نوعين مختلفين من هذا الحيوان المفكر .

الحضارة والسيطرة :

هل هناك صلة بين الحضارة والسيطرة ؟ . . . هل قيام الحضارة يقتضى ظهور العدوان ؟ ! . . . إذا كان التاريخ يطلعنا فى أغلب الأحيان على علاقة بين الحضارة والسيطرة فإن الذنب فى ذلك ليس ذنب الحضارة ، فالحضارة يصنعها دائماً رجال من أهل الفكر والمُثُل ، أولئك الذين نسميهم الأنبياء والفلاسفة والعلماء والفنانين والأدباء ، أولئك الذين ينيرون ويكتشفون ويخترعون ويخلقون ، وهم عندما يعملون يوسعون أفق الدنيا ، وينقلون المجتمع من مرحلة إلى مرحلة ، وينفذون بالبصر والبصيرة (١) إلى آماد من أسرار الطبيعة ، ويجعلون الإنسانية أكثر وعياً ، وأعمق إدراكاً لذاتها ، ولما حولها ، ولما يمكن أن تخطوه وتبلغه فى مستقبلها القريب البعيد . . . هذا الوعى عند الإنسانية ، وهذه القدرة على السير نحو الأفضل والأرقى ، تلك هى الحضارة .

إلى هنا لا شىء ينمّ عن روح سيطرة ، أو يدلّ على بادرة عدوان . فالحضارة إذن فى جوهرها سلام وصفاء وجهاد فى سبيل الكشف عن ملكات الإنسانية ، والوصول بها إلى الأرقى والأفضل .

ولكنْ . . . إلى جانب صانعى الحضارة وخالقيها — رجال

---

(١) البصر : حاسة النظر أما البصيرة فالحجة والخبرة .

آخرون . . . رجال كل همّهم أن يستغلوا مزايا الحضارة ونتائجها .

وهنا مشكلة الإنسانية ، بل مشكلة الحياة كلها .

وجود طائفتين : طائفة تصنع ، وطائفة تستَغِلّ . والطائفة التى تستغل هى المسئولة عن السيطرة والعدوان ، فى حين أن الطائفة التى تصنع هى التى تمثل الصفاء والسلام .

ذلك أن مجرد فكرة الاستغلال توحى بأن ربحاً أو غلة قد انتزعت من شىء موجود من قبل ، لا فضل لمستغلّ فى إيجاده . وإلا كان صانعاً أو خالقاً أو مكتشفاً أو مخترعاً . . . المستغِلّ يهبط على الشىء الذى أوجده آخر قبله ، فيستخرج منه ، وينتزع الربح والغَلَّة . وكلما استطاع المستغل أن يستخرج أكبر قدر من الربح كان الاستغلال فى قمّته وقوّته ، وكانت أهدافه قد بلغت غايتها . ومهما يكن من أمر الاستغلال ومشروعيته فإنه لا يمكن أن يعيش وينمو إلا فى حدود طبيعته ، وهى استخراج أقصى الربح من جهود غيره . هذا العمل ، حتى فى أعدل مظاهره ، يحمل فى جوفه نوعاً من العدوان ، ونوعاً من السيطرة ، فمادامت طبيعة عملك هى الربح من جهد غيرك ، فأنت ولا شكّ مسيطرٌ على غيرك هذا متعدٍّ على وجوده ، فى أى صورة من الصور ، ولو فى أخفها وأهونها ، حتى على الرغم من محاولة التعويض والأجر .

استغلال الحضارة هو إذن مصدر السيطرة والعدوان . . . أما صنع

الحضارة نفسها فلا يمكن أن يكون هو المصدر . . ذلك أن صانع الشيء وخالقه لا يعيش على استخراج غلة من جهد غيره . . . إنه يعيش على جهده هو . . . إنه لا يعتدى على وجود آخر غير وجوده ، إنه يصنع آنية الحضارة بكفيه ، ويستخرج موادها الأولية بيديه . إنه يحتاج إلى السلام ليعمل ويخلق ، وإلى الصفاء ليفكر ويبتكر .

ها هنا مصدر الحرب والسلام إذن . . . ها هنا مصدر الحضارة ومصدر دمارها . . . ها هنا مهدها ، وها هنا لحدها .

عندما أرمز للمستغل باسم « رجل العمل » ، وأطلق على صانع الحضارة اسم «رجل الفكر» فإن غرضى دائماً أن أنبّه إلى الخطر على حضارتنا ، وأن أذكّر رجال الفكر بمسئوليتهم تجاه الحضارة التى يصنعونها .

وعندما تقول « التعادلية » إن رجال الفكر يجب أن يكون لهم من القوة الذاتية المعادلة ما يمكنهم من مقاومة رجال العمل - فإن الغرض من ذلك هو المحافظة على جوهر الحضارة من روح السيطرة .

مؤتمر الفكر :

لم نزل مع الأسف نعيش فى عصر يطغى فيه رجال العمل طغياناً جارفاً على رجال الفكر . فإذا قام رجل عمل سياسى يضلّل الرأى العام

فى بلاده ، ويثير ثائرته ليقوده إلى سلب حقوق شعب فقير يلتمس قوت حياته- فإن إرادة مثل هذا الرجل هى التى تنتصر . . . أما إذا قام رجل فكر يحاول إضاءة المصابيح ، وعرض الحقائق ، والدفاع عن حرية الإنسان ، وتحذير البشرية من كوارث الحروب فى عصر الذرة- فإن أنوار الفكر تبدو باهتة بين بريق السيوف ، وصوته يخرج واهياً وسط ضجيج التهويل والتضليل . . . إنها المأساة الإنسانية !

لقد قلت فى «التعادلية» : إن الإنسانية لن يكتمل نضجها إلا إذا استطاعت قوة الفكر أن تعادل وتوازن قوة العمل ، أى أن يكون لرجال الفكر من السلطان الذاتى فى عصرهم ما يمكنهم من وقف رجال العمل عند حدهم ، فلا يكون فى طغيانهم تدمير «للبشرية ، أو تعويق» لها فى تقدمها وتحررها وتطورها .

يجب ألا يستأثر رجال العمل بمصير الإنسانية .

يجب أن يحسب لرجال الفكر حساب ، وأن يكون لرأيهم فى أحداث الدنيا وزن .

إن اليوم الذى نرى فيه رجال الفكر لهم من القوة الذاتية الموحدة ما يستطيعون به – إذا رأوا رجال العمل يجتمعون فى « مؤتمر لندن » ليتخذوا قراراً ضد حرية الإنسان أو الشعوب – أن يجتمعوا هم أيضاً فى مؤتمر فكرى فى « جنيف » أو « الإسكندرية » ليتخذوا قراراً يصون كرامة

البشرية ، ويكون له قوة الإلزام . . . مثل هذا اليوم إذا جاء سيكون هو يوم النضج الفعلى للإنسنية .

يجب أن نفكر منذ الآن ، ونسعى إلى تكوين رابطة ووحدة بين رجال الفكر فى العالم ، فى الاتجاه والوسائل والمثل ، كما أن بين رجال العمل فى شئون المال والسياسة تلك الروابط الدولية العلنية والخفية .

إن رجال الفكر هم حراس القيم الإنسانية ، وهم المسئولون الحقيقيون عن تطور البشرية ورقيها الحقيقى ، فى حين أن رجال العمل فى المال والسياسة يتجهون فى أغلب الأحيان إلى خدمة مطامع شخصية ، قد تصدم القيم ، وتعرقل الرُّقى الإنسانى .

بأى حق تحتكر تلك الأيدى غير الأمينة دائماً اللعب بمصير الدنيا ؟ . . . وبأى حق تُنَحّى عن تقرير مصير الدنيا العقول التى تنشر النور والحرية والتقدم ؟ ! . . . ولماذا وإلى أى حدّ نجد قرارات مؤتمرات رجال العمل فى المال والسياسة والحروب لها قوة التنفيذ ؟ ! . . .

إذا قالوا الحرب والفناء – كانت الحرب ، وكان الفناء ؛ وإذا قالوا السيطرة على الضعفاء وقع الضعفاء فى ذُلّ السيطرة . . . فى حين أن قرارات رجال الفكر ليس لها مع الأسف حتى الآن وزن معادل ، أو حتى وزن فعّال على الإطلاق !

هنا كل رجائي في الغد أن يكون رجال الفكر قوة معادلة وموازنة لقوة رجال العمل ، بها يستطيعون أن يَحُولُوا دون أى عمل يتخذ منافياً لروح الحرية البشرية .

كل أملى في المستقبل أن يتلاشى طغيان رجال العمل هؤلاء ، هذا الطغيان الذى يبتلع في جوفه رجال الفكر ابتلاعاً ، وأن تكون هناك قوة فكرية معَادلة تَحُول دون هذا الابتلاع .

في مثل هذا الغد – وأرجو أن يكون قريباً – سيكون لرجال الفكر من القوة الذاتية ما يمكنهم من إنقاذ البشرية دائماً ، والسير بها قدماً إلى أرقى .

نكون أولا نكون :

قال سياسي معاصر في أوربا تبريراً لاستعداده الحربي : إنه سيحارب دفاعاً عن مستوى معيشته المهدَّدِ بالانخفاض . . .   هذا القول لسان حال كل رجل يستمتع في الغرب بثمرات الحضارة . إنهم يَهُبُّون هناك للحرب ، كلما رأوا – أو خيل لهم الوهم أنهم يرون – أن حياتهم ستكون خلواً من طبق جيد من اللحم يوضع على المائدة ، ومن كتاب جيد يقرأ بهدوء إلى جانب المدفأة ، ومن ساعات ممتعة تقضى في دار أوبرا ، أو قاعة موسيقى ، أو مسرح تمثيل .

هذا الحرص على ثمرات الحضارة يبذلون فى سبيله دماءهم ودماء أبنائهم بلا تردّدٍ .

أما نحن فعندما ننهض قليلاً لنطلب نصيباً متواضعاً من الحضارة ، نحن الذين عشنا طويلا ولم نزل نعيش فى الفقر والحرمان ، ولا تعرف غالبيتنا الحفاة العراة طعم اللحم إلا فى بعض المواسم ، ولا تستطيع ميزانيتنا أن تستقطع من مال الشعب الجائع ما تشيد به دار تمثيل واحدة معدة إعداداً حديثاً لعرض فنّ جيد ، نحن الذين نكدّ بحثاً عن موارد تزيد من ثروتنا القومية الزيادة التى تتيح لنا قدراً من الحضارة التى نحلم بها . . . نحن الذين طرقنا كل باب نلتمس المعونة لنجدّد حياتنا ، ونقيمها على أسس عصرية من الإنتاج والفكر والفن ، نحن الذين استيقظنا ودبّ فينا الوعى ، ولمحنا عتبة الحياة الجديدة التى تنتظرنا فهممنا نخطو إليها مستبشرين ، وفجأة نجد من يقف فى وجوهنا ويقول : مكانكم . . ! إن الحضارة ليست من نصيبكم ، لأنكم لا تستطيعون دفع تكاليفها ! . . . نحن الذين نسمع كل هذا ونراه ، أفليس من الواجب علينا أن نقول للدنيا : سندفع تكاليف الحضارة ولو من دمنا ! نعم ، ولو من دمنا ! إذا كانوا هم هناك فى الغرب يبذلون دماء أبنائهم بشجاعة حتى لا ينخفض مستوى استمتاعهم بالحضارة ، فهل نفقد نحن حتى الشجاعة فى الدفاع عن حق صغير فى نصيب بسيط من هذه

الحضارة ؟ !

أنا لست من دعاة الحرب ، ولا من المحبين للعنف ، وإن السلام هو رجائى ، والصفاء هو أمنيتى . . . ولكن إذا حال أحد بيننا وبين حظنا من الحضارة فلا خير فينا إذا تخاذلنا ، ولا قيمة لحياتنا إذا فقدنا الأمل فى حياة أفضل . . . إن الحياة كالبهائم والأنعام خير منها العدم . ها هنا موطن شجاعتهم فى الغرب ! إنهم يلقون بحياتهم رخيصة كلما خافوا عليها من الانحطاط إلى مستوى لا يرضونه

نحن أيضاً لن نقل عنهم شجاعة ! لن يكون لحياتنا الفارغة أو التافهة ثمن عندنا . . . سنجعل منها حطباً نحرق فيه كل من يقف فى سبيل آمالنا فى التقدم .

إن المسألة لدينا أصبحت تتلخص فى هذه العبارة : نكون أو لا نكون ! . . .

لم تعد الحال بعد ما صرنا إليه من يقظة ووعى تحتمل مكاناً وسطاً بين الوجود والعدم . إما أن نوجد وجوداً حضارياً وإما أن نباد إبادة . هذا فيما أعتقد شعورنا اليوم جميعاً ، وهو شعور مشرف ، لأنه شعور كل الأمم عندما تنضج للحضارة . . .

نكون أولا نكون ! !

عندما تضع أمة المسألة هذا الوضع فإن قوتها ستكون هائلة ، لأنها

إنما تضع حياتها كلها ثمناً لتوجدَ ، أو تولد من جديد . وهذا الثمن إذا دفع بشجاعة وإخلاص فإنه قَلَّمَا يُنْفَقُ هباءً !

الإنسان والكون :

انطلاق الكوكب الصناعي أصابني بهزة . هزة فرح وخوف فى عين الوقت : فرح لانتصار الإنسان ، وخوف من أن يفقد ما ظفر به . شعورى هو شعور السجين ، وقد نجح فى الانطلاق من سجنه . . . إنه فرح وخائف فى عين الوقت : فرح بالنجاح والخلاص ، وخائف من أن تجذبه يد من الخلف فتردّه إلى ما كان فيه من حبس وظلام . وفكرة الإنسان المقيم فى كهف مظلم ، أو المتحرك فى سجن يدور — فكرة لازمتنى من ثلاثين عاماً فيما كتبت من مسرحيات ، فكان الإنسان عندى مناضلا دائماً للخروج من كهفه ، أو سجنه ، فتردّه قوى معاكسة لابد له من كفاحها . ولم أكن أتصور كيف يمكن التغلّب على تلك القوى المعاكسة ، ولكنى لم أسمح للإنسان يوماً باليأس من نتيجة كفاحه . فقد كانت نهايات مسرحياتى تدل دائماً على أن المعركة لم تنته بعد ، وأن الإنسان فيها لم يسلم قط بالهزيمة النهائية ، ولكنه يدرك تمام الإدراك خطر القوى التى تقوم فى طريقه ، وهى قوى هائلة ، مخيفة ، من قوانين وعوائد وتقاليد وغرائز ، ، كلها تشدّه إليها وتجذبه كما تجذب الأرض الأجسام

التى تريد الانطلاق .

لذلك كانت فرحتى كبيرة عندما رأيت جسماً من الأجسام نجح أخيراً فى التغلب على جاذبية الأرض وانطلق إلى الفضاء الواسع .

ولم يقف الأمر عند حدّ الفرحة الكبيرة ، بل تعداه إلى الأمل الكبير .

إن العقل الإنسانى الذى استطاع التغلب على جاذبية الأرض لابد أنه يستطيع أيضاً التغلب على جاذبية الأرض الأخرى التى فى أعماق نفوسنا . . . وتلك هى مهمة رجال الأدب .

لقد نجح رجال العلم فى الوصول إلى نوع من التحكم فى توجيه بعض قوى الطبيعة ، فهل ينجح رجال الأدب فى الوصول بالإنسان إلى درجة من الوعى والنضج والحكمة يستطيع فيها أن يتحكم فى توجيه قوى نفسه ؟ . . .

إن استمرار نجاح العلم يزيد – ولاشك– أملنا فى نجاح الأدب أيضاً .

ولكن كيف يمكن العلم أن يستمر فى نجاحه دون أن يستمر السلام على الأرض ؟

إن استمرار السلام هو الشرط اللازم لتحرير الإنسان من كهفه المظلم ، وسجنه الدائر . فاندلاع الحروب ، وانفجار الغرائز الشريرة هى التى تدمر العقل البشرى ، وترده من جديد إلى حبسه وظلامه .

منذ آلاف السنين أنشأ الإنسان «الهرم» ، ذلك البناء الهندسى

العجيب ، كما عرف أسرار الكيمياء التى تحفظ الأجسام بالتحنيط ، وتترك الصور على حيطان المعابد فى ألوان ثابتة ناضرة رائعة ، لا ينال منها مرّ الزمن ، ولا تغيرات الجو — كل ذلك منذ آلاف السنين قبل أن يولد المسيح ، ممّا يدلّ على أن العلم الإنسانى كان قد بلغ مرتبة جديرة بالعجب والإعجاب . ولكن ماذا جرى بعد ذلك ؟ ماذا جرى لهذا العلم الإنسانى ؟ . . . التاريخ يقول لنا : إن الحروب والغزوات اجتاحت البلاد ، ودمّرت تقدمها ، فوقف العلم عن السّير واأسفاه ! . . . لو أن ذلك العلم استمر فى سيره منذ تلك الآلاف من السنين ولم تدمره الحروب — لكانت البشرية اليوم قد وصلت إلى مرتبة لا تخطر لنا على بال .

لذلك كان مصير العلم والمعرفة الإنسانية معلقاً على استمرار السلام فى الأرض !

وإذا كان هناك حرّاس للسلام مسئولون عن استمراره فهم فى نظرى الأدباء ، فإن أقلامهم هى السياج الذى يجب أن يحمى حديقة السلام الأرضى !

إذا نجح الأدباء فى حفظ السلام فإنهم بذلك يكونون قد استطاعوا فى نفس الوقت التحكم فى الغرائز البشرية المدمرة .

ولكن السؤال المهم هو : كيف يستطيع الأدباء ذلك ؟ . . . بل قبل إلقاء هذا السؤال يجب النظر فى مسألة أخرى لابد من عرضها ، ونحن فى

صدد الخروج من جاذبية الأرض .

إن نجاح الكوكب الصناعي فى الانطلاق إلى الفضاء الخارجي قد أطلق معه خيال الناس ، فأصبحوا يتوقّعون قرب مجيء اليوم الذى يسافر فيه الإنسان إلى الكواكب الأخرى ، وإن الكلام يكثر فى هذه الأيام عن الملابس الواجب ارتداؤها هناك ، وعن الهواء الواجب توفيره لتنفس الإنسان ، والضغط الجوى الواجب إعداده ، وغير ذلك من الوسائل التى تكفل للإنسان استمرار حياته خارج كوكبه الأرضى .

كل هذا ممكن . وكل هذا وأكثر منه سوف ينجح رجال العلم فى تحقيقه بدون شك . وسوف يخرج الإنسان إلى كواكب أخرى .

ولكن . . . ما تأثير ذلك على طبيعته ؟ على نفسه ؟ على روحه ؟ . . .

هل يظل الإنسان إنساناً بالمعنى الذى كان عليه وهو ساكن الأرض ، . . . أو أن الإنسانية صفة أرضية قد تتغير بتَغيُّرِ الكوكب ؟

وإذا كان لابد للإنسان – بعد أن تمكّن من غزو الفضاء ، ووصل إلى كواكب أخرى – من أن يتغير هو نفسه قليلاً ، وأن يصبح شيئاً أكثر من إنسان ، أو على الأقل كائناً يختلف بعض الاختلاف وذلك الإنسان الذى عاش فوق كوكب الأرض – إذا صحّ ذلك ، وأصبح الإنسان هذا الشيء المخالف للإنسان – فهل هذه النتيجة محبوبة

أو مكروهة ؟ . . . هل تريد الإنسانية أن تحتفظ بإنسانيتها فى أى مكان فى الكون ، أو أنها لا ترى بأساً فى أن تخلعها وتصبح شيئاً آخر؟

فى مسرحيتى « شهر زاد » أراد الإنسان أن يخلع عنه إنسانيته بما فيها من غرائز وحدود ، وأن ينطلق مرتفعاً ، ولكن القوة الدافعة لم تكن كافية فظلّ معلقاً بين الأرض والسماء ، وأصبح بذلك إنساناً محطماً غير صالح للحياة . وكان لابد له لكى يعيش مرة أخرى أن يعود إلى أرضه ، وإلا فهو ضائع فى الفضاء !

أغلب ظنى أن الإنسان لا يريد أن يفقد إنسانيته وهو يرتفع إلى الأعلى ، لأنه بغيرها يفقد كل شىء وما من إنسان يريد أن يصبح شيئاً غير نفسه .

إن قوة الإنسان هى فى وعيه لضعفه ، وكفاحه فى سبيل التغلب على هذا الضعف . تلك هى قوته الدافعة ، وسرّ حركته الدائبة ، فهو ليس بالإله الكامل المكتمل الجالس فى سكون فوق قمة « أولمب » !

إن الإنسان الإله أو المتأله المتدثر فى غروره لن يلبث أن ينهار كتمثال قديم ! ذلك أنه فقد أهم صفة فى الإنسان ، وهى الكفاح ضد الضعف . فالآلهة لا وعى عندهم بضعف ، وهم بذلك لا يكافحون ، وهنا امتياز الإنسان . . . إنه دائماً يكافح . . . إنه ينتصر ويهزم . . . وهزائمه أكثر من انتصاراته ، ولكنه يكافح دائماً ، لأنه يكتشف

دائماًمواضع ضعف تقتضى منه التحرك لحريتها .

إذن . . . سيظل الإنسان فى رأيى إنساناً مهما ينطلق إلى الكواكب ، . . . لن يكون الإنسان إلهاً ، ولن يقبل ، لأنه بذلك يفقد أشياء كثيرة ، وأول ما يفقد لذة الحياة نفسها ، لذة الحركة والتطور والكفاح والانتصار على ضعفه الإنسانى .

الإنسانية إذن لن تقبل تغيير صفتها ، لأنها لن تشعر بانتصارها إلا وهى محتفظة بشخصيتها ، واعية لذاتها ، وهى إنما تغزو الكواكب باسم الإنسانية الأرضية لا باسم آخر ، ولا بصفة أخرى .

ما دامت إنسانيتنا لنا دائماً بقوتها وضعفها ، سواء على الأرض أو خارجها ، وما دمنا نحرص على هذه الإنسانية ، لأنها هى كل وجودنا فى الأرض ، وبغيرها لا نوجد نحن على الإطلاق — إذن فالجوهر الحقيقى للأدب لن يتغير كثيراً ، وعمل الأدباء سيكون دائماً متصلاً – كما كان ويكون دائماً – بهذه الإنسانية . كل ما يجب أن يحدث من تغيير هو فى قوة الطاقة المطلوبة لإحداث الأثر الفعّال فى الغرائز البشرية حتى لا تفلت منها عناصر مدمرة .

إذا استطاع الأدباء التحكم فى الغرائز البشرية المدمرة ، كما استطاع العلماء التحكم فى الطاقة الذرية الخطيرة ، وتمكنوا من توجيهها فى الطريق المفيد للجنس البشرى – إذا استطاع الأدباء ذلك فإنهم ولاشك يكونون

قد قاموا بواجبهم ، كما تمليه عليهم مسئولياتهم فى هذا العصر الجديد .

هل يكون للتقدم الهائل الذى وصل إليه الإنسان فى « التكتيك » العلمى أثره فى تقدم أو تغير « التكتيك » الأدبى ؟ وهل ستبقى الأنواع الحاضرة فى الشعر والقصص والمسرحية ، أو أن بعضها سيختفى ، أو يتخذ زياً آخر ؟ . . .

ما من شك أن تغييراً سيحدث ليلائم التغيير الذى سيحدث فى الحياة الإنسانية كلها . ولقد سبق لحياتنا أن تغيرت بعد ظهور السيارة والطيارة ، فتبع ذلك تغير فى أسلوب الأدب ، فلم تعد البلاغة بلاغة ألفاظ رصينة بطيئة ، كما كانت فى عصر العربة والجياد ، بل ظهرت بلاغة أخرى قوامها بريق الأفكار المتلاحقة ، مع سرعة الصور المتتابعة . وأدّى تلاحق الأفكار ، وتتابع الصور إلى ظهور أدوات جديدة غير القلم ، تعتمد على البصريات والسمعيات ، لتقوم بمهمة التعبير عن حركة ذلك العصر السريع ، وأصبح الأدباء منذ فاتحة ذلك العصر يتخذون من أدوات التعبير القلم ، وميكروفون الإذاعة والتلفزيون ، والسينما إلخ . . . ولكننا اليوم مقبلون على عصر جديد . أصبحت فيه سرعة السيارة والطيارة شيئاً يتعلق بالماضى ، فالسرعة التى صنعناها اليوم بإطلاق الكوكب الصناعى ، سرعة مدهشة مذهلة ، لا ندرى بعد على أى وجه ستؤثر فى مجرى حياتنا الحاضرة . . . ولكن الذى يمكن أن نعرفه هو أن حياتنا

الحاضرة إذا تغير أسلوبها فلابد أن يتغير تبعاً لذلك أسلوب التعبير عنها ! . . . ولكن الأدب أحياناً يمهد للحياة الجديدة كما يمهد لها العلم . فالأدباء أسرع إحساساً بما يجرى حولهم ، وأقوى شماً لرائحة المستقبل ، لذلك لا أستبعد أن تظهر من الآن المحاولات الأولى لأدب جديد يقوم على أساس من الشكل والمضمون يلائم وضع الإنسان فى عصره الجديد : عصر الكون .

الفكر أساس القوة

يذكرون أن كاتباً شرقياً هو « أمين الريحانى » راعه افتقار بلاده إلى ما عند الغرب من أسباب القوة فقال : « أنا الشرق عندى فلسفات فمن يبيعنى بها طائرات » ؟ !

هذه الكلمة أعارضها ، لأن الشرق ليس عنده الآن فلسفات . والشرق يوم كانت عنده الفلسفات كانت عنده أيضاً كل ضروب القوة المعروفة فى تلك العهود ، بل إن الفلسفات يوم كانت فى أرضه : فكر فى اختراع الطائرات : «عباس بن فرناس» ، وإن هذه الفلسفات يوم انتقلت إلى الغرب انتقلت معها بذرة روح الاختراع التى أنبتت الطائرات .

إن دماغ المهندس الذى يصنع الطائرة والغواصة والدبابة دماغ قد

كّونته الفلسفات والآداب والفنون ، وزوّدته بملكات التفكير والتصورّ والخيال . أما الذين يظنون أن هذه المخترعات تظهر كالنبات البرّى فى الأمم دون أن تسقيها نهضات فكرية فى مختلف الفنون – فأولئك هم الواهمون ! .

إن الفكر هو أساس القوة ، وإن الأمم التى تتباهى اليوم بالقوة المادية وحدها إنما قامت فيها هذه القوة نفسها على دعائم الفكر والمفكرين من أمثال «أفلاطون» و «نيوتن» و «جوته» و «شيلر» و «نيتشه» و «فاجنر»..إلخ ، فهم الذين صنعوا «القوة المفكرة» ، ذلك «الدينامو» الذى أساء الطغاة استعماله ، فحوّلوه من أداة نعمة للإنسانية إلى أداة نقمة على البشر .

فإلى الذين بهرتهم القوة الوحشية فى سلطانها الحاضر ، فأنكروا سريعاً عناصر الحضارة الحقيقية ، وازدروا الأمم التى تفنى فى تجميل الحياة بالفنون والآداب – أسوق هذه الكلمة وأصيح :

«تكلمى دائماً يا آلهة الفكر والشعر ، فإن سلطانك هو الباق ، فمن كلمات فيك يصنع جوهر الحضارات ، ومادمت أنت فى الوجود· فإن الحياة تستحق الحياة ، والإنسان يستحق أن يسمى إنساناً !

الكتاب القادم : الفضاء ومستقبل الإنسان

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)



هـــذا الكتـاب

إن الإنسان الذى طوّف بخياله فى الآفاق العلا . ثم صعد إليها وذلل صعابها جدير به وبعبقريته أن يستخرج من تراب أرضه ما يحل به مشكلة طعامه ، ويوفره سائغاً لكل محروم وجائع .

وهؤلاء رجال ال
مستديرة لدراسة هذ
بالخراب والدمار . وه
لنا ما دار حول تلك
وما عرض من حلول
وقدم الحل لطعام ال
شبح الجوع أشرق ف



١٠ جـ